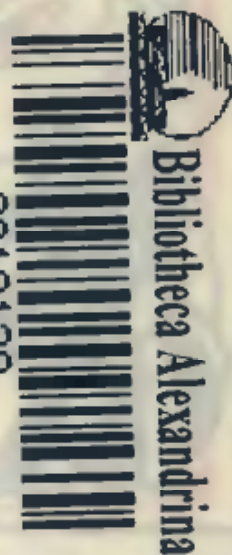


الف ليلة وليلة

حسين جوهير محمد أحمد براق
أمين أحمد العطار

٥



الهيئة العامة لكتبة الإسكندرية	
رقم التخصيص	٢٢٥
رقم التسجيل	١١٤١٢

الف ليلة وليلة
الجزء الخامس

معروف الاسكافي

١٩/١١/٤٠
٣٣٨.٢٢

١٩٩٠

١٩٩٠

كتبه

محمد أحمد براق

حسن جوهدر

أمين أحمد العطار

الطبعة الثانية



General Organization of the Alexandria Library (GOAL)
دار المعارف
Bibliotheca Alexandrina

رسوم: الفنانة النمساوية ستيتلا يونكرز

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

جزء الخامس

صفحة	
٥	على شار والجارية زمرد
٧٥	التفاحات الثلاث
٨٩	نور الدين وأخوه شمس الدين
١١٩	معروف الإسكافي



على شار والجارية زمرد

(١)

كانَ في خُرَاسانَ قديمًا تاجرٌ غَنِيٌّ، ذُو جَاهٍ عَرِيضٍ، ومالٍ كثيرٍ؛
يُدعى بِمَجْدِ الدينِ، ولكنه لم يكن يَشعُرُ بِلَذَّةِ الغِنَى، ولا حلاوةِ الجاهِ،
فقد كانَ أَعزَّ أُمانيه أن يَمُنَّ اللهُ عليه بِخَلْفٍ صالِحٍ، تَقَرُّ به عينُهُ، وينفَسِحُ
أملُهُ، وتَبْتَسمُ به الحياةُ .

ولم يُحقِّقِ اللهُ له هذه الأُمْنِيَّةَ إِلَّا بَعْدَ أنْ تَقَدَّمَ به العُمُرُ، ووَهَنَ
منه العَظَمُ، واشتعلَ رأسُهُ شَيْبًا، وبلغَ من السَّكِبِ عِتِيًّا .

وكانَ اللهُ قد رزَقَه مولودًا ذَكَرًا؛ وكانَ وَسيما، بديعَ الصُّورةِ، جَميلَ
المُحيّا، مُشرقَ الوجهِ، وضَّاءَ الجَبينِ؛ سَمَّاهُ عَلِيَّ شارَ .

اهتم الأبُ بأمرِ ابنه ، وتولَّى رعايته ، وتفرَّغَ لتعليمه ، والعنايةِ
 بشئونه ، ولم يشغله عنه شغلٌ ، وبذلَ في سبيلِ ذلك جهداً كبيراً ،
 ومالاً كثيراً ؛ وكأنَّه بذلك يُريدُ أن يأخذَ بيده ، فيجتازَ به المرحلةَ
 الصعبةَ الشاقةَ من حياته الأولى في أقصرِ وقتٍ قبلَ أن يدركه الاجلُ ،
 وتلحقه المنيَّةُ ، ويتركَ ولدهُ جاهلاً من غيرِ درُبةٍ أو درايةٍ بشئون الدنيا
 والناس .

ولما حضرتهُ الوفاةُ ، كانت أنظارُهُ لم تقصرْ بعدُ عن رعاية ولده ،
 وبثه تعليماته ، وإسداءه النصيحَ له وإرشاده إِيَّاه فدعاهُ إليه ، وقال له ،
 وهو يستودعه الدنيا في طريقه إلى الآخرة :

يا ولدي ! لقد حانتْ مَنِيَّتِي ، وقَرُبَتْ سَاعَتِي ؛ وأريدُ أن أوصيكَ
 وصيةً ، وأنصحك نصيحةً ، تُعينك على اتِّهاجِ السبيلِ السَّوِيِّ ،
 وتذكِّبَ طريقِ الضلالِ ؛ فَأَعِرْنِي سَمْعَكَ ، وَأَقْبِلْ عَلَيَّ بِقَلْبِكَ
 وعقلك .

فقال له ولده : مد الله في عمرك يا أباي ، ولا حرمني عطفك ،
 ولا منعمي برك ، ولا فرَّق بيني وبينك ، وجعل يومي قبلَ يومك ؛
 أما وقد أردتَ أن تتحدَّثَ إليَّ ، وتعمرنِي بعطفك ، وتسعدني بفيضٍ
 من حنانك وبرك — فهات ما عندك من جميلِ النصيح ، وكريمِ الموعدةِ
 فأُتِي آذانُ مصغية ، وعقلٌ ذاكر ، وقلبٌ وَّاع ، وإني لك سميعٌ
 مُطيع .

ثم نظرَ الوالد إلى أبيه نظرة إشفاقٍ، وعطفٍ وحنانٍ؛ لأنه لم يزل يراه
رطبَ العود، غضَّ الإهاب؛ ثم قال له:

يا بُنَيَّ؛ إنك لا تزالُ حَدَثًا، ما عرَكتكَ الأيامُ، وما حنَكتكَ
التجاربُ، ولم تعرِفْ من غدرِ الناسِ، ومن أخلاقِهِم ما عرَفتُ،
ولم تقِفْ على كثيرٍ من طبائِعِهِم؛ فنصِيحتي لك أن تجتَنِبَ مُصاحِبَةَ
الأشرارِ؛ وإياكَ وقرينَ السوءِ، فإنه كنافعِ الكيرِ: إن لم تحرقْ
نارُهُ لم تسلمْ من دخانِهِ، ولا تكثِرْ من مخالطةِ الناسِ، ولا تصادقْ
إلا خيارَهُم، والخيرُونَ منهم لا تعرِفُهُم إلا بعدَ طولِ الخبرةِ، فإذا
اطمأنَّت إليهم صاحبَتَهُم؛ فإن لم تستفدْ منهم — نفحتكَ سيرةُ عَطرَةٍ،
وذكرُ حميدٍ.

قال على وقد اغرورَقت عيناهُ بالدموعِ:

يا أباي؛ نُصحتك الغالي سمعتهُ، ووعيتُهُ.

استمر الوالدُ في الحديثِ وهو يغالبُ ضَعْفَهُ:

وافعل الخيرَ يا بُنَيَّ، وداوِمِ عَلَى صُنْعِ الجليلِ، واغتنِمِ بذلَ المعروفِ؛
وارحَمَ مَنْ هو دونَكَ يرحمَكَ من هو فوقَكَ؛ ولا تظلمْ أحداً فيُسلطَ
اللهُ عليك من يظلمُكَ؛ ولا تتعجلْ في تصريفِ أمورِكَ؛ وشاور من
هو أكبرُ منك سنًّا؛ وأكثرَ خبرةً.

فقال الولدُ — وقد بدتْ عليه علاماتُ التأثيرِ الشديدِ، لأنه رأى في

وجهِ والدِهِ، واختلاجِ عينيه، وشحوبِ لونه، وتهدُّجِ صَوْتِهِ، وضعفِ

نبراته ، وخمود جسمه ، وارتخاء ذراعينه — رأى في كل ذلك ما يؤكد
دُؤى أجله :

سأعمل بكل ما تُشيرُ عليَّ به يا أبي ؛ فزدني علماً ونصحاً .
فقال الأب : احفظ مالك ، وأحسن القيامَ عليه ، وشكره ، ولا
تفرط فيه ، فإنك إن فرطت في مالك مددت يدك إلى أقل الناس
شأنًا ، وقد تمدُّها إلى أعدائك فيشمتون بك ، ولا تضمن إن كانوا
يعطونك أو يردُّونك ؛ واعلم أن قيمة المرء فيما ملكت يمينه من
مالٍ ومتاع .

وإياك وشرب الخمر ، فهي رأس كل شرٍّ ؛ وهي مُذهبة للعقول ،
مضيعة للهوية ، متلفة للمال ، مفسدة للصحة .

فقال عليٌّ وهو يبكي : سَمِعاً وطاعةً يا والدي ، زدني من
حكمتك .

وما زال الوالد يوجه ولده ، ويرشده ، حتى غشيته غاشية الموت ،
وفصلت بينه وبين ابنه .

وشقَّ عليٌّ شارٍ كثيراً فراقُ هذا الأب الحكيم الحنون ،
فحزن عليه حزناً شديداً ، برَّح به كل مبرح .

ولم يمض وقت طویل على وفاة الأب ، حتى طوى الموت الأم .
فقدَّ عليٌّ شارٍ بفقدِهما كلَّ صاحب أمين ، وكلَّ مرشدٍ معين .

ولكنه كان حريصاً على مبدأ أبيه ، عاملاً بنصيحته ؛ سائراً على

آرائه ، مهتدياً بإرشاده : فَظَلَّ كَذَلِكَ زَمَنًا طَوِيلًا كَالطَّوْدِ الشَّامِعِ ،
تتكسّر عليه مُحاولاتُ أصحابِ السُّوءِ ، وترتدّ عنه تديراتهم لإيقاعه في
حبائلِ شُرورهم ، وبُورِ مفاسدهم ؛ طامعين في ماله ، آملين في مَنعمٍ
يعودُ عليهم منه .

ولم ييأس أصحابُ الشرِّ ، ومُدعى الخير ، من الطَّن في آذانِ الفتى
الحَدَث ، ونَفَثِ سُمومهم فيه . حتى وجدوا أخيراً المِنْفَذَ الذي استطاعوا
أَن ينفذوا منه إلى عقله وقلبه .

وعلى أثر ما وجدوا فيه من ضَعْف ، وما رأوا من مَنعز - استطاع
أَبالسةُ البشرِ أَن يوسوسوا إلى الفتى الذي قرَّ في ذهنه أَن هذا المالُ
الكثير ، الذي تركه له والدُّه : لا يمكن أَن ينفدَ وقال له شيطانه : إذا
تركتَ هذا المالَ الكثيرَ كما تركه أبوك - فمن يُنفقه ؟ ولِمَن تتركه ؟
وإن لم تتمتع به فمن الذي يَتَمَتَّعُ به ؟

وعلى ذلك انحدرَ به المفسدون إلى مهاويهم ، وانزلقوا به إلى مزالقهم ،
وبذَرَ المالَ كبذر الحب ؛ وبعثر باليمينِ والشَّمال . فما مضى من الزمنِ
إلا القليلُ ، حتى كانت الثروةُ الكبيرةُ قد ذهبتْ هباءً ، وبددتْها
أيدي الشياطين .

وأصبحَ علىَّ أسوأ حال ، وأدركَ بعد فواتِ الأوانِ قيمةَ
نصائحِ أبيه ، وعاقبةَ نسيانِهِ لها ، وإنكارِهِ إياها ، وتغافلِهِ عنها .
وما زالَ الحالُ ينحدرُ به من أسفل إلى أسفل ، وينتقلُ به من سيِّئٍ

إلى أسوأ — حتى كسدت نجارته ، وبيع أثاثه وداره ، وأصبح صفر اليدين .

والتفت حوله ، فلم يجد لأصحابه وخيلانه أثرا : فقد انفضوا من حوله ، وتركوه وحيدا لا يجد داراً تؤويه ، ولا ثوباً يرتديه ، إلا ما يستر به جسده ؛ فتعجب لحالهم ، وأخذ يفكر في سبب انقطاعهم ، فلم يقطن إلى السبب ؛ فسمى إليهم ليأنس بهم ، ويعرف خبرهم ، ويرجو منهم المساعدة بما أسلف معهم من معروف وبر .

وما كان أشد دهشته ، وأكبر لوعته — حين تنكر له جميعهم معرضين عنه غير آسفين لما جرى عليه ، ولا راثين لما أصبح فيه بسببهم . وبينما هو سائر في سوق التجار شارداً فكراً ، تتلوى أَمَاؤهُ جوعاً — إذ مرَّ على جمع كبير من الناس ، فانتبه لنفسه وسألها : ما علة هذا الزحام ؟ ! وعلام الناس يجتمعون ؟ !

ومدَّ بصره ، فرأى جاريةً مليحةً تباع ، والناس من حولها ينتظرون قدوم الدلال ليفتح باب التزايد وحينئذ يتزايدون ، ويغلون ثمنها .

فاقترب من القوم ، ووقف يُسرح الطرف ، حتى استقرت عينه على الجارية المعروضة للبيع ، فوجد لها جارية باهرة الحسن ، رائعة الجمال ، ذات جاذبية ودلال .

فقال لنفسه : والله لا أتقل من هنا ، حتى أرى : بكم ستباع

هذه الجوهرة الغالية؟ ومن سيجوزها؟
 خضر الدلال، ووقف أمام الجارية، واستفتح بقوله :
 يا تاجر، ويا أرباب الأموال؛ مَنْ يفتح باب الشراء على هذه
 الجوهرة الثمينة، والدرّة الغالية؟
 فقال تاجر من الحاضرين : أنا أشتريها بخمسمائة دينار .
 فقال تاجر آخر : أزيدها عشرة .
 فبرز شيخ أزرق العين، قبيح المنظر، يسمّى رشيد الدين،
 وقال — : ومائة .

وقال آخر : وعشرة .
 فقال الشيخ رشيد الدين : على ألف دينار .
 فكفّ التّجار عن المساومة . وتقدّم الدلال إلى صاحب الجارية
 يشاوره في بيعها للشيخ . فقال :
 لقد أقسمتُ لها ألا أبيعها إلا لمن تختاره هي، فشاورها في ذلك .
 فجاء الدلال إلى الجارية وقال :
 يا جارية؛ إن هذا التاجر يريد أن يشتريكِ؛ فما قولك؟
 فنظرت الجارية — وكانت تُدعى زمرّد — إلى التاجر الشيخ .
 وقالت :

أنا لا أبيعُ لشيخ أوقعه الهرم في أسوأ حال .
 فعاد الدلال بالرأي إلى صاحبها؛ فقال له : شاورها في غيره .

فتقدم رجلٌ آخر وقال : علىّ بما أعطى الشيخُ .

فنظرت الجاريةُ إليه ، فوجدته مصبوغ اللحية ؛ فقالت — :

ما هذا العيبُ والريبُ ، وسوادُ وجهِ الشيبِ ؟ لقد تسكّثر الغشُّ
حتى صارَ في الشعرِ .

ولم يرقها أن تبیع شبابها ، وفتنتها ، وجمالها — لرجلٍ قبيحٍ ،
أو شيخٍ هَرِمٍ ؛ مهما أغلى ثمنها

فقال لها الدلال : معك الحقُّ يا بُنيّة .

وأبلغ الرجلَ رفضها إياه ؛ فاستحيا ، وتأخر عن شرائها .

تقدم رجلٌ آخر ، فوجدته أعورَ ذا عينٍ واحدة ، فرفضته كذلك ،
وابتسمت ابتسامةً ساخرة لاذعة ، وقالت : ليت عينيه سواءا

فأشار لها الدلالُ بيده إلى رجلٍ آخر ، وقال لها : أتقبلين هذا
الشاري ؟ فنظرتُ إليه فوجدته قميئاً ؛ تدلت لحيته على صدره ؛ فغطّت
نصفَ طوله ، فابتسمت ابتسامتها الساخرة اللاذعة ، وقالت — :

لا تأمنوا شرَّ من قُرْب من الأرض ، ثم أدارتُ وجهها وتمتمت : إن
القماءَ ذلّة . ورفضت أن تبيعهُ نفسها ، وأشارت إلى لحيته ، وقالت — :

إنها لحيّةٌ طويلةٌ باردة مظامة ، يروح عليها البعوض ويغدو ، ويسرح
فيها ويمرح .

فضحك الدلالُ وقال :

يا فتاة ؛ انظري ، هؤلاء التجارُ أمّاك ، فتخيّري لنفسك ما يُرضيها .



نظرت الجارية في حلقة التجار ، وفيمن وقف حولهم من الناس ،
وتفرست فيهم واحداً بعد آخر ، حتى وقع نظرها على عليّ شار .

فقلت : يا دلال ؛ أنا لا أباعُ إلا لهذا السيد ، صاحب الوجه
الصُّبوح ، والقَدِّ المليح ، والجبين المشرق ، والروح الخفيف .

فتعجب الدلال لفصاحتها ، وسُرعة بديتها ، وحلاوة كلامها ،
وعذوبة لسانها ، وحُسن اختيارها ، فقال له صاحبها :

لا تعجب ، فإن فصاحتها ، وسرعة بديتها — لألعبُ ظهوراً من
رائع جمالها ، وإشراق بهجتها . فهي فضلا عن نظمها لرقائق الأشعار ،
تحفظ القرآن ، وتحميدُ تلاوته ، وتعرفُ أكثر القراءات فيه ، وتروى
الأحاديث الشريفة ، بصحيح الروايات ، وتكتبُ بالسبعة الأقلام ،
وتعرفُ من العلوم ما لا يعرفه العالم العلامة .

أما يداها فإنها تخرجُ من أشغال التطريز عَجَباً ، فهي تعملُ السُّورَ
الحريرية وتوشّيها بخيوط الحرير والذهب والفضة ، فيباع الواحد منها
بخمسين ديناراً .

فما أسمعُ من سيفُوزُ بها ، ويجعلُ منها سيدةً لداره .

فقال الدلال : حقاً إنها لدُرّةٌ غاليةٌ ، وقد أصبت في أنك جعلتها
تختارُ لنفسها ، فلا يشتريها إلا من ترغُبُ هي في بيع نفسها له ، فهي
أعظمُ وأغلى من أن تدفعَ إلى كلِّ من يرغبُ فيها ، وإن كانت غيرَ
رَاجيةٍ فيه ، لأن مثلَ هذا العقلِ الواسعِ ، والأدبِ الجمِّ ، والعلمِ

الغزير — لا يُرغمُ علي مصاحبة من لم يُرغب في مُصاحبته .
وقصد الدلال من فوره إلى عليّ شار وقال له :
يا سيدي ؛ اشتر هذه الجارية فإنها لم تختَر غيرك شاريًا لها ،
وما ارتضت سواك سيّدًا عليها .

وعدّد له صفاتها ، وذكر له مواهبها . ثم قال :
هنيئًا لك إذ فزت بها ، فقد أعطاك من لا يبخل بالعطاء .
فأطرق عليّ إلى الأرض ، وهو يضحك من نفسه تارة ، ويأسف
عليها تارة أخرى ، إذ يُعرض عليه شراء جارية ثمنها ألف دينار ، بينما
هو لم يذق طعامًا في يومه ، وغلب عليه الخجل ، فلم يَقوَ على المجاهرة
بحاله أمام جمع التجار .

وطال إطرأقه وسكوته ، فلما رأت الجارية منه ذلك قالت للدلال : —
امض بي إليه ، حتى أعرض نفسي عليه ، وأرغبه في أخذى ، فإنى
لا أباع إلا له ، وما دام سيدي قد جعل لي حق الاختيار فقد اخترت
هذا ولا أرتضى غيره .

فصحبها الدلال إلى عليّ شار وأوقفها أمامه ، وقال له :
ما رأيك يا سيدي ؟ إن الجارية لم ترغب إلا فيك ؛ وأراك أطرقت
إطراقةً طويلة ، تفكرُ تفكيراً عميقاً كأنّهما شديداً يعتلج بين جنبيك ،
وتحاول أن تكتمه أو تخفيه . سمع عليّ هذا الكلام فاستمرّ في إطرأقه ،
ولم يردّ عليه جوابًا ، وكأنه لم يسمع شيئًا .

فقالت الجارية : يا سيدي ؛ مالك لا تريدُ شرائي ؟

ابتغنى بما شئت ، وسأكونُ سبباً في سعادتك وهناءتك ؛ فستسرع
رزقك ، ويكثر مالك ؛ وستقبلُ الدنيا عليك . فاتهز هذه الفرصة
فرفعَ علي رأسه إليها وقال : عرفتُ أن الخيرَ في يدك ، وهل أبتاعك
على الرغم من ضيق ذات يدي ؟ إن ثمنك غالٍ ، ولا أستطيعُ دفعه .

فقال له : اشترني بتسعمائة دينار

قال : ليتني أملكها

قالت : بثمانمائة

قال : لا أقدر ، ولا يمنعني عن شرائك إلا عجزى .

فما زالت تنقصُ في الثمن مائةً بعد مائة ، إلى أن قالت — : مائة دينار
فقال : وما معي مائةٌ كاملة .

فضحكت ، وهمست في أذنه : كم تنقص مائتك ؟

فقال ، وقد احمرَّ وجهه خجلاً ، وتصبَّب جبينه عرقاً :

إني أصدقك ياسيدي ، فما معي مائةٌ ولا غيرها ، ولا أملكُ ديناراً
ولا درهماً ؛ فتخيَّري لك مُشترياً غيري ، وكفاك إخراجاً لي ، وعوضاًني الله
مما فقدته خيراً . فتفرستُ فيه الجاريةُ مشدوهة ، فتحققتُ من وجهه
صدق قوله .

فأخرجت من طيات ثيابها كيساً به ألف دينار ، وفي غفلةٍ من التاجر
أعطته الكيس ، وقالت له :

ادفع منه تسعمائة في ثمنى ، وأبقى المائة معك ننتفع بها .
 ففعل ما أمرته ؛ واشتراها أمام الناس بتسعمائة دينار ، دفع ثمنها من
 ذلك الكيس ، ومضى بها ، وهى تكاد تطير من فوق الأرض فرحاً
 بصحبته . — فلما وصلت إلى داره وجدتها قاعاً صفصفاً ، لا أثاث
 ولا ريش ، ولا أواني ، ولا طعام بها .

فأعطته ألف دينار أخرى ، وقالت له :

امض إلى السوق ، فابتع لنا بثلاثمائة دينار أثاثاً ، وأواني للدار . نخرج
 وابتاع ما أمرت به وأحضره مع الحمالين ، ثم قالت له :

اذهب أيضاً وابتع لنا مأكولاً ومشروباً بثلاثة دنانير ، وأحضره
 قطعة من حرير على قدر ستر ، واشتر من « القصب » خيوطاً من ألوان
 مختلفة : صفراء وبيضاء ، واشتر خيوطاً أخرى من حرير ، ملونة سبعة
 ألوان ، فإذا عُدت إلى الدار ، وجدتنى نظفتها ، ورتبت أثاثها ، وأعددتها
 لإقامتنا إعداداً يسرّك ، ويذهب عنك حزنك .

ولما عاد عليٌّ إلى داره وجدها قد استحالت إلى روضة من الرياض
 النضرة ، يسر العين نظامها ، وتشرح الخاطر نظافتها ورؤاؤها ؛ فالشرح
 صدره وابتهجبت نفسه ، وامتلأ قلبه سروراً .

وكانت زمردة قد أعدت الطعام وهيأت سفرة جملة ، فأكلا وشربا .
 وبعد أن فرغا من تناول طعامهما ، وكانت لا تفتأ تُحدثه بأحاديثها العذبة ،
 وتضحكه بنوادرها اللطيفة ، وطرائفها المليحة — نهضت فأوقدت

الشموع ؛ وأخذت السّتر فطرزته بالحرير الملوّن ، وزرّ كَشْتَه بالقصب ،
وقسمتهُ إلى أقسام ، رَسَمَتْ في بعضها صُور ما اختارته من الطيُور ، وفي
بعضها صُور ما استحسنَتْ صُورته من الوحوش .

واستغرقَ منها تطريزُ هذا السّتر ثمانية أيامٍ كاملة . فلما فرغت منه
صقلته وأعطته سيدها عليّا وقالت له :

اذهبْ به إلى السُّوق ، وبعه بخمسين ديناراً لأحدِ التجّار ، واحذرْ
أن تبيعه لأحدٍ من عابري الطّريق . وإن بعته لغير تاجر ، فإنّ ذلك
يكونُ سبباً في افتراقنا ، لأنّ لنا أعداء لن يغفلوا عنا ؛ فهم يرقبونا ،
ويحصّون علينا كلّ أعمالنا

توجّه بالستر إلى السُّوق ، وباعه لتاجرٍ بخمسين ديناراً . ثم أحضر لها
نسيجَ سترٍ آخر لتطريزه .

وهكذا صارَ كلّ ثمانية أيام يأخذُ منها سترأ مُطرزاً ويبيعه لأحدِ
التجار ، ويحضر لها غيره لنصنعه ، وكانَ دخلُهما خمسين ديناراً كلّ
ثمانية أيام . وعاشا على أتم وفاقٍ ، وأحسن حال ، وأهنأ عيش — سنةً
كاملة . ثم خرج على ذات يوم إلى السوق ، ومعه السّترُ ليبيعه على عادته .
فتقدم إليه رجلٌ مجوسيّ كان واقفاً بين التجار ، وقال :

أنا آخذه بستين ديناراً

فامتنع عليّ من بيعه له ، فأخذ المجوسيّ يزيدُ له في الثمن ، وهو يمتنع ،
حتى بلغَ الثمنُ مائة دينار . فأصرَّ عليّ على الرفض ، وأرادَ أن يأخذ السّتر



وينصرف ، ولكنَّ المجوسىَّ لم يكفَّ عن إلحاحه وإلحافه فى الاستيلاء على الستر . وخاطب تاجرًا فى التوسط له لإقناع علىَّ بالنزول له عنه ، وأعطاه نظير تلك الوساطة مبلغًا من المال مُعْريًا . تَقَدَّمَ هذا التاجرُ إلى علىَّ وألح عليه فى بيع الستر للرجل المجوسىَّ ، وقال له :

ياسيدى ؛ لا تخفْ من هذا المجوسىَّ ، فما عليك منه بأس وستأخذ الثمن وهو يأخذ الستر ، ثم يمضى كل منكما إلى سبيله — وشعر تجار السوق بما حدث بين علىَّ والمجوسىَّ ، فتمجبوا من أن يرفض الفتى بيع الستر بهذا الثمن الكبير ، ورغبوه فى بيعه للمجوسىَّ ، فنزلَ على رغبَتهم وباعَهُ لَهُ مكرهاً ، وقبضَ ثمنه ، وقفلَ راجعاً إلى منزله ، وقلبه يتوجَّسُ خيفةً .

وحانت من علىَّ شار التفاتةٌ وهو يهتُمُ بدخول الطريق المؤدَّى إلى منزله ، فامحَّ المجوسىَّ يسيرُ خلفه يَسْتَرِقُ الخطأ ، فدهش لذلك أشدَّ الدهشة ، وتوقَّفَ عن المسير ، وواجه الرجل المجوسىَّ قائلاً :

ما بالكَ يا رجلُ تسيرُ خَلْفِي ١٢ أَلَيْكَ عِنْدِي حاجة ١٢

فقال : ياسيدى إنَّ لى حاجة فى صدرِ هذا الرُّقَّاق ، أريد قضاءها . فتركه علىَّ ومضى إلى منزله ، وهو يُخالِسُ الرجلَ نظراً المستريب . وإذا بالمجوسىَّ ما زال يلاحقه ، حتى وصلَ إلى باب المنزل .

فصاح فيه الفتى قائلاً : حَقًّا ! إِنَّ أَمْرَكَ لَمَجِيبٌ ١٣ فلماذا تتبغى أَيْنًا أُسِيرُ ١٤ وماذا تبتغى مِنِّي ١٤

فقال الرجلُ باستكانةٍ وتوسل : ياسيدى ؛ أريدُ منك أن تسقيني

جرعة ماء ، فَإِنِّي ظَمَأَن ، وسيكونُ أجرُك كبيراً عند الله .
 فقال عليٌّ في نفسه : هذا رجلٌ قصدني في شربة ماء ، فوالله لا أخيبُ
 أمله . ولعلَّ أمره ينتهي عند ذلك .

ثم دخلَ المنزلَ وملاً إناءَ الماء ، فرأته زمرده ، فقالت له :
 هل بعتَ السَّترَ ؟

قال : نعم
 قالت : ألتاجر أم لعابر سبيل ؟ فَإِنْ قَلْبِي مُنْقَبِضٌ ، ونَفْسِي غيرَ
 مُطْمَئِنَّةٍ ، وأحسُّ قلقاً لا أعرفُ له سبباً .

قال وهو يحاولُ إخفاءَ كذبه : إنما بَعْتُهُ لِتَاجِرٍ
 فعاوَدْتَهُ السُّؤالَ ، وكأنَّها أَحَسَّتْ أَنَّ فِي الْأَمْرِ سِرّاً : أَخْبَرَنِي بِحَقِيقَةِ
 الْأَمْرِ ، حَتَّى أَتَدَارَكَ أَمْرِي ؛ وَلِمَنْ تَأْخُذُ إِنَاءَ الْمَاءِ ؟ !
 قال : لَأَسْقِيَ الدَّلَالَ .

فقالت : ليسَ لنا حولٌ ولا قُوَّةٌ إِلَّا بِاللَّهِ ! !
 وخرجَ عليٌّ بِإِنَاءِ الْمَاءِ إِلَى الرَّجُلِ ، فوجدَه قد تدرجَ في الدخولَ من
 البابِ إلى فناءِ الدارِ ، فنهَرَه قائلاً :

هل وصلتُ بك الوقاحةُ يا رجلُ إلى أن تتعدى ، وتدخلَ منزلي من
 غيرِ إِذْنٍ ؟ !

فقال الرجلُ : يَا سَيِّدِي ، لا فرقَ بينَ البابِ والفناءِ ، وماعدتُ أَتَقِلُّ
 من مكاني هذا إِلَّا إِلَى الْخُرُوجِ . وقد أَحْبَبْتُ أَنْ أُسْتَتَرَ حَتَّى أَشْرَبَ ثُمَّ أَخْذَ

منه إناء الماء ، وتجرع ما فيه ، وناولهُ إِيَّاهُ ، وانتظرَ عليٌّ منه أن يعودَ منصرفاً ، ولكنه لم يفعل ، فتملكه الغيظُ . وقال له .

لماذا لا تذهبُ إلى حالِ سبيلك ؟ !

فقال المجوسىُّ في تَلَطُّفٍ وهدوءٍ واستكانةٍ : يا مولاي ؛ لا تكنُ ممن فعلَ الجليلَ ومنَّ به ؛ وإيُّمُ الحق ، لقد أحبتك نفسي ، وحللتَ مِن قَلْبِي مَحَلًّا كَرِيماً ؛ وأريدُ أن تطعمَني أيُّ شَيْءٍ مما عندك ، حتى يكونَ بيننا « عيش وملح » .

فقال عليٌّ : قم يا رجلُ وانصرفْ ؛ فإنى لا أحبُّ مِمَّا حَكَهُ ، ولا لَعَوًا في القول . وليس عندي أيُّ شَيْءٍ في البيتِ تطعمُهُ . وكان عليٌّ يَخْشَى أن يطلبَ طعاماً من البيتِ ، فتكشفَ زمردُ أمرِ الستر .

قال الرجلُ : يا مولاي إن لم يكنْ في البيتِ شَيْءٌ يؤكَلُ ، نخذ هذه المائةَ الدينارِ ، واثنَينا بشيءٍ من السوقِ ، ولو برغيفٍ واحدٍ نقسِّمُهُ بيننا ، لتأْكُدا المعرفةَ ، وتقوى الصداقةَ ، وتدومَ المودةَ . فخطرَ لعلِّي أن هذا المجوسىُّ لا بد أن يكونَ مجنوناً ، إذ يعطيه مائةَ دينارٍ نظيرَ أكلةٍ لا تُساوى غيرَ درهمين .

فقال له : أيُّ شَيْءٍ تأكل ؟

قال : أيُّ شَيْءٍ يطردُ الجوعَ — وإن قلَّ — خيرَ عندي من أيِّ طعامٍ فاخر .

فأشارَ له على أن ينتظرَ حيث هو ، وذهبَ فأغلقَ بابَ الدارِ الداخِلِ
بالمفتاحِ وأخذَه معه ؛ ثم توجَّهَ إلى السوقِ ، واشترى جُبِنًا ، وزبدًا ،
وعسلًا ، وموزًا وخبزًا ، وآتى به إليه .

فقال المجوسى : يا مولاي ؛ هذا شئٌ كثيرٌ يكفى عشرةَ رجالٍ ؛
فكرم علىَّ وكلِّ معي .

فقال على : كلَّ أنتَ فإنى لا أشعرُ بجوع .

قال الرجل : يا سيدي ؛ إننى الآن ضيفُك ، وواجب على المضيفِ
إكرامُ الضيف ، ومجاملته ، وموائسته .

فلم يرَ علىُّ بُدًا من الجلوسِ معه ، ومشاطرته شيئًا من طعامه ، وهو
كاره متأفف .

وبعد أن أكل شيئًا قليلًا كف يده ، وأراد أن ينهض ؛ فأعطاه
المجوسى موزةً كان قد قشرها ، وشقَّها نصفين ، ووضع بين شقيها على
غفلةٍ من علىَّ شيئًا من البنج النقي ، السريع التأثير ، ثم غمسها في العسل
وأقسم عليه أن يأكلها .

فأخذها علىُّ منه ، فاستقرَّتْ فى بطنه حتى غابَ عنه رُشدُه ،
ولحقته غيبوبةٌ ثقيلةٌ ، وارتقى على الأرض كأنه قد فارق الحياة .

حينئذٍ نهضَ المجوسى متنمرًا ؛ تنطقُ سماتُ وجهه بالشرِّ والأذى ،
فنزح من بين ثيابِ علىَّ مفتاحَ الدارِ . ثم جرى إلى الطريقِ ، وأسلم
ساقيه للريح . حتى وصلَ إلى منزلٍ فى الناحية الأخرى من المدينة ،

فدخله ، وتوجهَ إلى قاعةٍ كان يجلسُ فيها ذلك الشيخُ الهرمُ الذي كان يشتري زمرد بألف دينارٍ ولم ترضَ به ، وشرعَ يَقْصُ عليه ما فعله مع عليٍّ شار ، وما تمَّ له .

فانبسطت أساريرُ الشيخ ، وتهلَّلَ وجهه ، وربَّتْ علي كَتِفِ المجوسى ، وقال له :

إنك بارعٌ يا أخى فى تدبيرِ الحيل .

فضحكَ ضحكةً عاليةً وقال : ألم أعدك يا أخى أن آتيك بهذه الجارية ، التى سخرتُ منك بين جميعِ التجار — على الرِّغْمِ مِنْهَا ؟

فضحكَ الشيخ وقال لأخيه : هيا بنا يا برسوم إليها ، وسترى كيف أذيقُها العذابَ ألواناً ؛ ولنْ أكتفى بذلك بل سأرغمُها على اعتناقِ ديننا الذى اعتنقه باطناً ، وأحكمتُ إخفاءه عن الناسِ فسميتُ نَفْسِي رَشِيدَ الدين ، حتى لا يُعرفَ أمرى .

ثم خرجا وكأنهما ماردان خيثان ، قد وكَّلا بنشر الشر ، وبذر الفساد فى الأرض .

امتطيا دابَّتَيْنِ ، واصطحبا معهما بعضَ الغلمان ؛ ليعاونوهما فى خِطتهما الفاجرةِ الجهنمية ، وتزود الشيخ بكيس من النقود ، ليشتري به ذمم من يعترضُ سبيله من رجال الوالى .

ولما وصل الشقيَّان ، وأعوانهما إلى منزل عليٍّ شار ، ترجَّلا ، وفتحَا الدار بالفتح وأمرَا رجالهما بالهجوم على زمرد وحماتها قسراً .

— فلما رأتُ زمردُ الرجالَ يقتحمونَ عليها يَبْتِها ذُعرتُ ذُعراً شديداً ، واعتصمتُ بِغُرْفَتِها ، ولكنهم لم يُمهلوها ، وحالوا بينها وبين البابِ فلم تستطعِ إِغلاقَه ؛ ولما هَمَّتْ بالصراخ والاستغاثة ، سدوا فها بأيديهم ، وهددوها بالقتل إذا حاولتُ أن تحدثَ هرجاً أو مرجاً ، أو رفعتُ صوتها لتستنجد ، أو امتنعت على الرجال أن يحملوها إلى حيث يشاءون .

— استسلمتُ زمرد ، وفوضتُ أمرها إلى الله ؛ فحملها الرجالُ وخرجوا من المنزل جميعاً ، بعد أن ألقوا بِمِفْتَاحِ الدارِ بِجوارِ علىَّ شار ، الذي كان لا يزالُ راقداً على الأرض لا حراكَ به .

ولما وصلَ الشيخُ المجوسىُّ بزمرد إلى قصرِه ، قال لها :

أتعرفين يا لعينة من أنا ؟

أنا الشيخ الذي رفضتُ أن يشتريكَ وهجوته ، وسخرتِ منه ، وهزئتِ به ؛ قد أخذتكِ الآنَ مرغمة .

فهطلتِ الدموعُ من عينِ زمرد ، وقالت : حسبكَ الله يا شيخَ السوءِ إذ فرقتَ بيني وبين سيّدى .

فقال لها : يا جاريةَ النحس ؛ سوفَ ترينَ ما سأنزلهُ بكِ من العذاب إن لم ترتضىينى سيّداً لك ، وتدخلينِ فى دينى .

قالت زمرد : والله لو قطعتمَ لِحْمى قطعاً ما أفارقُ دينى ، ولعل الله يأتينى بالفرج القريب : فلئن كانَ دينُكَ عزيزاً عليك ، فإن دينى عزيز

على ، واعلم يا شيخُ أن الدينَ لله ، والقوميةَ لوطن ، والإنسانيةَ للعالم ؛
فدينك لنفسك ، وقوميتك لوطنك ، وإنسانيتك للعالم أجمع ، ثم اعلمَ
أن الدينَ الصحيح لا يختلف في أصوله وعمومه عن غيره من الديانات
الصحيحة ، لأن كلَّ دينٍ صحيحٍ سليم يرمي إلى تنزيه النفس ، وتخليصها
من الشر ، والاتجاه إلى الخير ، ويرى إلى أن يحب الناس بعضهم بعضاً ،
ويخلص بعضهم لبعض ، ويتعاونوا على البر والتقوى ، ولا يتعاونوا على
الإثم والعدوان ، وأن يتواصوا بالخير .

وإن أنواع العبادات تختلف صُورها وأشكالها باختلاف الأديان ،
ولكنَّ الغاية واحدة ، وهي الاتجاه بالنفس البشرية اتجاهاً روحياً
ليرتفع الناسُ عن دنسِ المادة ، ويفروا من شرورها .

سمع الشيخُ من زمرِ هذا الكلام ، فأعجبه كلامها بعض الإعجاب ،
وأحسَّت هي ذلك ، فاسترسلت في كلامها لعل الشيخ يتأثر فيطلقها من
عقالها ، ولكنه لم يلبث أن انتفض انتفاضةً شديدة ، وأمرها أن تُمسك
عن الكلام ، وأعادَ عليها كلامها الذي كانت تسخرُ به منه في السوق أمام
التجار ، ثم أمر غلمانَه أن يطرحوها أرضاً ، ودعا بسوطٍ ، وأخذ يضربها
ضرباً مُبرحاً ، وهي تصرخُ وتستغيث ، وتتلوَّى تحت السياطِ السريعةِ
المتابعةِ التي تُلهبُ جسمها الفضةَ البضةَ ، فلا يُعِيها أحد .

— وما زال الرجل يضربها ، ويتناوبُ ضربها هو وغلمانُه ، حتى ضَعَفَ

صوتها ، وانقطع أنينها ، فقال للخدم : جروها على الأرض ، وألقوها في المطبخ ، ولا تطعموها شيئاً .

ف فعلوا بها ذلك ، وظلت نهارها وليلاً في غشية شديدة من ذلك الضرب المروع .

-- وفي صباح اليوم الثاني كرّر عليها القول والضرب ، فلم تنزع ولم يضعف إيمانها .

فلما كل أمر الخدم بإعادتها إلى مكانها ، ففعلوا وهي لا تنبس بينت شفة ، فلما أفاقَت . قالت : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

(٢)

أما على شار فقد ظل راقداً تحت تأثير البنج إلى اليوم الثاني ، ثم ابتداءً ينقشع هذا التأثير شيئاً فشيئاً حتى أفاق ، واسترد وعيه ، قهض ونادى : يا زمرد .

فلم يلق مجيباً . قهض ، ودخل يبحث عنها ، وهو ينادى :
يا زمرد .

فلم يسمع جواباً ؛ فالدار ساكنة سكون القبر ، لا تسمع فيها همساً ، فكاد يذهل ، ولكنه هدأ قليلاً ، واستعرض ما جرى بينه وبين ذلك الرجل الخبيث ، وقدر ما حصل ، وعرف أن ما جرى عليه

كان بسببه ؟ وأنه احتال عليه ، ونفذ بسبب غفاته وبلايته مأربه . فندم
على ما فعله حيث لا ينفع الندم ، وأخذ يصرخ ويحن ، ويشتكى ويئن ،
ويشق أثوابه صائحاً :

يا زمرد .

وعاد على نفسه باللوم والتوبيخ ، والتأنيب والتقريع ، ثم سكت
بعض الوقت . وجلس مطرقاً ساهماً ، حائر النظر ، مشدوهاً مبهوتاً ؛
وكان ينتفض أحياناً ، ويخرج من صدره زفرة ، ومن فمه أنه ؛ إذا رأيته
وهو يزفر ويئن . خلته قد انشق صدره ، وتصدع قلبه ، وبلغ
حنجرته ، وبعد هدوء قليل ، يهز رأسه ويصيح كالجنون :

يا زمرد .

يا زمرد ! يا فتاتي ! يا حياتي ! يا نيمي ! يا نور عيني ! أين أنت

يا زمرد ؟

ثم جعل يقول : أين أنت يا زمرد ؟ ! !

لقد أحيت قلبي ، وأنعشت نفسي ، ووسعت رزقي ؛ أين أنت

يا زمرد ؟ !

نصحتي فلم أتصيح : ونهيتني ، فلم أنه ؛ فخررت على نفسي

البلاء ، وسببت لك الشقاء ؛ أين أنت يا زمرد ؟ !

خدعني الماكر الخيث ، واحتال علي ، وأنساني نصيحتك ،

وأغرائي بالمال ، قاتل الله المال ؛ فانطلت على حيلته ، وأطمته ، ففقدتك ؛

أين أنت يا زمرد ؟ !

ترك هذا المفتاح لأفتح عليكِ غرفتكِ ؛ وهأنذا أفتحها ، ظننا منى أبى
سأجدها عامرة بك ، مشرفة بإشرافك ؛ فلم أجد إلا ظلاماً وسكوتاً ،
وبؤساً وشقاء ؛ أين أنت يا زمرد ؟ !

ماذا فعل ذلك الما كرُ الخبيث معك !

أنا أعرفُ حبكِ ، ووفاءكِ ، وإخلاصكِ ؛ فهل يستطيع هذا الرجلُ
أن يسلبكِ هذا كله ؟ لا يستطيعُ أن يفعلَ ؛ فإنه سهل هين على اللصوص
أن يسرقوا المال ، وينهبوا السكنوز ، ويخطفوا الناس ؛ وليس سهلاً هيناً
أن تُسرقَ القلوب ، ونُهَبَ العواطف ، ويُغتصبَ الحنان ؛ آه ! أين
أنت يا زمرد ؟ !

ظل على شارٍ يحدثُ نفسه بمثل هذا الحديث حتى ليخيل لمن يراه أنه
رجلٌ قد ذهب لبه ، وأوشك أن يذهب عقله ، وينمحي إدراكه ،

ذبلت نضارته ، والتصقَ جلدهُ بمظلمه ، وتجمعت أساريرُ وجهه ،
واصفراً لونه ، وبرزت وجنتاه ، وغارت عيناه ، وتحطمت أعصابه ،
وانصرفَ عن الدنيا فلا يشتهي زاداً ، ولا يستسيغ طعاماً ، ولا شراباً ؛
وأظلمت الحياةُ في وجهه ، وضائق على سمعتها ، وأثقله الهمُّ ، وظلَّ يلح
عليه حتى أشرفَ على الهلاك ، وأوشك أن يردَ موارد التلفِ .

ولم يكفه ما حلَّ به من غمٍّ وما نزل بروحه من عذاب ، ولا ما أصاب
جسده من وهن — فأراد أن يعذب نفسه عذاباً جسدياً ألماً فوق عذابه ،
ويهين نفسه الجريحة إهانةً بليغة لعله يكفر شيئاً أو بعضَ شيء عن

جَريرته الكبيرة التي لا تغتفر ، وإساءته البالغة التي أَسَاءَ بها إلى نَفْسِهِ ،
وإلى من أخلصت إليه ونفعتهُ ؛ فإِذَا فعل ؟

خَرَجَ هَائِماً يَجُوبُ الطَّرَاقَاتِ ، وَيَطُوفُ الْأَزْقَةَ مَنَادِيّاً ، لَا يَمِي مِنْ
أَمْرِهِ إِلَّا مَنَادَاتُهُ بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْآخِرِ : يَا زَمْرَدُ !

ثُمَّ يَشْفَعُ قَوْلُهُ بِدَقَّةٍ عَنيفَةٍ أَلِيْمَةٍ يَنْزِلُ بِهَا عَلَى صَدْرِهِ الْعَارِي مِنْ
حَجَرَيْنِ يُمَسِّكُ كُلَا مِنْهُمَا بِيَدٍ .

وَتَبَعَهُ الْأَطْفَالُ ، يَصِيحُونَ عَلَيْهِ ، وَيَهْلَلُونَ مِنْ حَوْلِهِ : مَجْنُونُ ١١
مَجْنُونُ ١١

فَكَانَ كُلُّ مَنْ عَرَفَهُ يُبْكِي عَلَيْهِ ، وَيَتَحَسَّرُ لِحَالِهِ ، وَيَتَسَاءَلُ عَنْ عِلَّتِهِ ،
وَعَمَّا حَدَّثَ لَهُ .

فَإِذَا مَا أَتَى عَلَيْهِ اللَّيْلُ ارْتَمَى عَلَى الْأَرْضِ حَيْثُ يَكُونُ : فِي شَارِعٍ
أَوْ فِي زُقَاقٍ أَوْ تَحْتَ جِدَارٍ أَوْ فِي الْخَلَاءِ .

وَيَعُودُ فِي الصَّبَاحِ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ : يَطُوفُ ، وَيَنَادِي : يَا زَمْرَدُ
يَفْعَلُ ذَلِكَ ، وَقَدْ أَهْمَلَ نَفْسَهُ إِهْمَالاً شَدِيداً : فَاسْتَرْخَتْ لِحِيَّتُهُ ،
وَاجْبَرُ شَعْرُهُ وَتَشَعَّتْ ، وَتَهَامَلَ ثَوْبُهُ ، وَحَفِيتْ قَدَمَاهُ ، وَزَاغَ بَصَرُهُ ،
وَشَرَدَ عَقْلُهُ ، وَظَهَرَتْ عَلَيْهِ عَلَامَاتُ الْبَلَاءِ وَالْجُنُونِ .

وَفِي إِحْدَى اللَّيَالِي سَاقَتْهُ قَدَمَاهُ إِلَى بَيْتِهِ فَدَخَلَهُ ، وَارْتَمَى فِي إِحْدَى
قَاعَاتِهِ ، فَرَأَتْهُ جَارَةٌ لَهُ عَجُوزٌ طَيِّبَةُ الْقَلْبِ ، فَسَمِعَتْ إِلَيْهِ وَجَعَلَتْ تَرْبِتُ
كَتِفِهِ بِحَنَانٍ وَتَقُولُ : يَا وَلَدِي ؛ مَتَى حَدَّثَ لَكَ كُلُّ هَذَا ١٢

فأعرض عنها وأشاح بوجهه ، ونثر يديه ، وضرب على صدره وندش شعره ، وقال : آه يا زمرد .

فألحت عليه العجوزُ أن يقصَّ عليها قصته لعلها تستطيعُ أن تجدَ له مما أصابه مخرجاً ، فهي سيدةٌ ، تقدمتُ بها السن ، وكثرتُ تجاربُها في الحياة ، ومرت على رأسِها بلايا عظام ، فلعل الله يفتحُ عليها ، ويُعينها على تفريجِ كربِها ، وإزالةِ الغمة عنه .

سمعَ على شار من المرأة العجوز هذا الحديث ، فوقع من نفسه موقع القبول والتقدير ، ولكنه هز رأسه ، ثم اندفع يقول : هاتوا من جُنْدَتِها وعَقَّتِها .

فأخذت العجوز تطمئنُّه ، وتعملُ على تهدئته ، وتمتثالُ عليه أن يقصَّ قصته ، ويَقِفَها على سببِ فجيعته ؛ فلعلَّ الله يقدرُها على إعانتِهِ ، والأخذِ بيده ، وما زالتُ به تحاورُهُ ، وتداوِرُهُ ، وتلاطِفُهُ ، وتربت كَتِفِهِ ، وتمسحُ شعرَهُ — حتى خيلَ إليه أن بارقةً من نورِ الأمل تلوح أمامه ؛ فتجامل على نفسه الضعيفة الواهنة ، وقصَّ على جارتِهِ العجوز كلَّ قصته ؛ فلما انتهى منها سقطَ رأسه على صدره ، وانخرط في بكاءٍ ونحيبٍ فلاطفته العجوزُ ، وواستهُ ، وهوَّنت عليه أمره . وقالت له — :

لا تيأس يا بني ، ولا تبتئس ، إن بعدَ العسرِ يسراً ، وسأدبرُ لك أمراً يخرجك مما أنت فيه ، ويجمعُك إن شاء الله بجاريك .

فهز على شار رأسه متشككاً في إمكانِ تحقيقِ قولها ، مُستبعداً

اجتماعه بجاريته ؛ فقالت له العجوز :

يا ولدى ؛ لا تحملُ لذلك همًّا ، فإنَّ مع العسرِ يسرًا ، وأصيقُ الأمورِ
إنْ فكَّرتَ أوسعه .

— فلما سمع على هذا الكلامَ وقال : هيَّا بنا .

فقالت العجوز : اصبرْ وما صبرُك إلا باللهِ ، وافعلْ ما أمرك .

قال على ، فى يأس : هَاتى ما عندك .

قالت : اخرجْ إلى السوق ، واشترِ صندوقًا من صناديقِ الصاغة ،
واملاهُ لى بأنواعٍ من حُلِيِّ ، دقيق الصنع ، ظريف الشكل ، طريف
النقش ، يعجب النساء ، ويروقهن ؛ واثبتى به ؛ وسأحمُله ، وأطوفُ به
على جميع الدورِ فى المدينة ، فإذا رغبَ فيه نساءٌ بيتٍ ، أغليتُ الثمنَ ،
وبالغتُ فيه ، فلا يشتريْن ؛ وأظلُّ أنتقلُ من دربٍ إلى دربٍ ؛ ومن بيتٍ
إلى بيتٍ — حتى أعثرُ على فتاتِكَ .

فرح علىُّ شار بفكرتها ، وتجددَ أملُه ، وانتعشَ قلبُه ، وأوشك أن
يتبددَ يأسُه ، فنهض من فورِه خفيفًا نشيطًا ، يقاومُ ضعفه ، ويجاهدُ
علته ؛ فذهبَ إلى السوق ، وابتاعَ صندوقًا جميلًا ، وملاهُ بأنواعِ الحُلِيِّ ،
وصنوفِ الجواهر الجميلة الشكل ، الدقيقة الصنع ؛ غيرَ ضنينٍ فى سبيلِ
ذلكَ بالمال .

فلما عاد إلى العجوز ، فتحت الصندوق ، وفحصتْ ما فيه ، فأعجبها
إعجابًا ؛ وقالت : هذه فتنةُ المرأة .

انْزَرَتْ العَجُوزُ يَازَارَ بَائِعَةٍ ، وَحَمَلَتْ الصُّنْدُوقَ ، وَتَوَكَّاتٍ عَلَى عَكَازٍ ،
وَخَرَجَتْ تَطَوُّفُ فِي الطَّرِيقَاتِ . وَتَطْرُقُ الْأَبْوَابَ ، وَتَدْخُلُ الْبُيُوتَ ؛
لَتَعْرِضَ بِضَاعَتَهَا ظَاهِرًا ، وَتَتَنَسَّمُ أَخْبَارَ زَمَرْدَ .

وَزَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ يَوْمًا ، وَبَعْضَ يَوْمٍ ، ثُمَّ سَاقَتْهَا قَدَمَاهَا إِلَى دَارِ
رَشِيدِ الدِّينِ الْمَجُوسِيِّ . وَمَا اقْتَرَبَتْ مِنْ بَابِهَا حَتَّى تَسْمَعَتْ ، فَسَمِعَتْ
أُذُنَاهَا الْمَرْهَفَتَانِ أُنَيْنًا آتِيًا مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ؛ فَوَقَفَتْ تَتَعَرَّفُ مُصَدَّرِ
الْأُنَيْنِ ، فَتَأَكَّدَتْ أَنَّهُ آتٍ مِنَ الدَّارِ .

فَطَرَقَتْ الْبَابَ ، وَقَدْ حَدَّثَتْهَا نَفْسُهَا أَنَّ وَرَاءَ هَذَا الْأُنَيْنِ شَيْئًا يَمْتُّ
إِلَى مَا تَقْصِدُ إِلَيْهِ ، وَتَبْحَثُ عَنْهُ

فَتَحَتْ لَهَا الْبَابَ جَارِيَةً صَغِيرَةً السِّنِّ ، فَابْتَدَرَتْهَا الْعَجُوزُ قَائِلَةً :
يَا بَنِيَّتِي ؛ إِنْ مَعِيَ حَوَائِجَ جَمِيلَةٍ ، تَلِيْقُ بِجَمِيلَاتِ النِّسَاءِ ؛ أَفَلَا يَوْجَدُ
هَنَا مِنْ يَبْتَاعُ مِنْي شَيْئًا ؟ !

فَقَالَتِ الْجَارِيَةُ : نَعَمْ يَا أُمِّي ؛ ادْخُلِي حَتَّى أَخْبَرَ الْفَتَيَاتِ وَالنِّسَاءَ ،
فِيحْضُرْنَ إِلَيْكَ .

فَدَخَلَتِ الْعَجُوزُ ، وَجَلَسَتْ فِي وَسْطِ الدَّارِ ، وَأَثَتِ جَوَارِي الْمَجُوسِ
وَالْتَفَنَ حَوْلَهَا ، يَشَاهِدُنَ بِضَاعَتَهَا ، وَيَعْجَبْنَ بِهَا ؛ وَهِيَ تَلَاظِفُهُنَّ ،
وَتَشْجِمُهُنَّ عَلَى الشِّرَاءِ ، وَلَا تَسَاوِمُهُنَّ عَلَى ثَمَنِ . وَأُذُنَاهَا تَنْصِتُ ،
وَتَسْمَعُ الْأُنَيْنِ ، وَعَيْنَاهَا تَبْحَثَانِ عَنْ مَكَانِهِ ، فَأَبْصَرَتْ فِي إِحْدَى
الْقَاعَاتِ النَّائِيَةَ شَبَحًا مُلْقًى عَلَى الْأَرْضِ ، وَهُوَ الَّذِي يَصْدُرُ عَنْهُ هَذَا الْأُنَيْنُ .

فشخصَ بصرُها إلى هذا الشَّبح ، وتأمَّلته ، فعرفتُ فيه زمرد ، جارية على شار ، وهي طلبتها التي تبحثُ عنها .

— فسرت العجوزُ في نفسها ، وبالغتُ في ملاطفةِ الجوارى ومداعبتِهِنَّ ، حتى لا يلاحظنَ شيئاً ؛ وأخذتُ تعرضُ بضاعتها ؛ فتضعُ في أصبع هذه خاتماً ، وفي رجل تلكَ خلخالاً ، وفي عنقِ ثلاثةٍ عقداً ، وفي أُذنِ رابعةٍ قُرطاً ، وفي يد خامسةٍ سواراً . وهكذا ؛ ثم تعرضنَّ أمامَ المرأة ، وتظهر لهنَّ الإعجابَ بهنَّ ، وبفرطِ جمالهنَّ ، وحلاوةِ زينتهنَّ .

فعلتِ العجوزُ هذا كله متعمدةً أن تقتربَ من مكانِ زمرد وبذلك أخرجتُ من صندوقها كل ما لديها من حُلَى نادرة طريفة ، واختارت لهنَّ ، واخترن لأنفسِهِنَّ ، وبالغتُ في أن تبشَّ في وجوهِهِنَّ ، وتتودَّد إليهنَّ .

فلما رأى الجوارى ما هي عليه من رِقَّةٍ وظرف ، وما لها من دُعاة لطيفة ، ونادرة طريفة — جاوَّ بنهاً في هذا التودَّد . وطلبنَّ منها أن تمكثَ معهنَّ ، حتى يتحلَّينَ بالحلى أمامَ سيدهنَّ ، وينظرَ إليهنَّ ، وهي على صدورِهِنَّ ، ونُحورِهِنَّ ، وفي معاصِمِهِنَّ . فقالت لهنَّ :

— تحلَّينَ وتجمِّلنَ كما تشأنَ ؛ فما أبغى غيرَ مسرَّتكنَّ وراحتكنَّ ، ولكن ، يا فتياتي ؛ ما بالُ هذه الصبيةِ الراقدةِ هناكَ تئنُّ ، ولا تشاركُ في سُرورِكنَّ ومرحَكُنَّ ؟ !
فقلنَّ لها :

يا أماء؛ ليسَ أمرُ هذه الفتاة بيدينا .

قالت العجوز : وما شأنها إذن ؟ ١٤ -

قلن : إن سيدنا هو الذى أمرنا بتقييدها ، وإلقائها هكذا ؛ وهو مُسافر الآن .

فَقالت العجوز ، وقد تهللتُ عيناها بالدموع : يا حَرَّ كبداه ، وهل تسمعُ لكنَّ أنفُسكن - يا بناتى - أن تتركُنَّها على هذه الصورة البشعة ، وأنثنَّ اللطيفاتُ ، المرحاتُ ، الجميلات ١٥ -
- أتطاوعكن قلوبكن أن تريَن أختا لكنَّ تينَّ هذا الأنين ، وتتوجَّع ذلك التوجع ١٦ ؟

- إن ليَ عندكنَّ رجاءً . هو أن تحلنَ وثاقَ هذه الجارية ، حتى إذا قُرِبَ وقتُ مجيئ سيدكنَّ أعدتنَّ وثاقها ، ولكنَّ ثوابُ كبيرٍ عند الله .

فقلن : سَمعاً وطاعة يا أماء .

ثم سارعنَ إلى زمرد ، وحلنَ وثاقها ، وأحضرنَ لها الطعامَ والشرابَ اكتساباً لمرضاةِ العجوزِ .

واقتربت العجوزُ من زمرد ، تنظَّاهُ بتشجيعها ، ومواساتها وتمسُّح دموعها ، وتربت على كتفها ، وتلح عليها أن تهدئَ نفسَها ، وأن تتناولَ طعامها ، وأن تشاركَ أخواتها مرحهُنَّ وسرورهُنَّ ، وهى فى الحقيقةِ تودُّ أن تبعثَ فى نفسِها الأملَ بقربِ خلاصِها من أسْرِها . وعودَتِها إلى سيِّدها .

فلما أَسَرَّتْ المعجوزُ لزمرد حقيقة أمرِها ، وزَقَّتْ إليها بُشْرَى الفرج ،
كَادَ قلبُ زمرد يُطِيرُ من شدةِ الفرج ؛ ولكنها أَخَفَتْ ذلك في نفسها ،
وأَقْبَلَتْ على طعامِها تَلْتَهُمُهُ التهاماً ، وهي تَهْمِسُ للمعجوز حين مضغِ
لقيماتها بما تُريدُ أن تعرفَها به وتَقْفَها عليه .

— فقالت لها المعجوزُ بصوتٍ خفيضٍ ، بينما الفتيات لاهياتُ عنها
بانتقاء الحُلَى ، والموازنة بينهما :

إن سيدك على شارسِيَّاتِي إليك في هذه الليلة ، ويقفُ بجوارِ
مصطبةِ الدار ، ويَصْفِرُ لكِ صَفْرَةً ، فإذا سمعته نجأويه بمثلها ، وتدلى له
من الطاقَةِ بهذا الحبلِ ، فيأخذك ، ويمضى من غير أن يشعرَ أَحَدٌ .

فشكرتُ لها زمرد جميلَ فعلِها ، وحُسنَ سَمْعِها ، ووعدتها بأنها
ستظلُّ سَاهِرَةً حتى يَأْتِيَ على شار .

جالستُ المعجوزَ الجوارِيَّ بعضَ الوقتِ حتى لا يتنبَّهَنَّ لما فَعَلْتُ
مع زمرد ، ولما أَوْشَكَ النهارُ أن ينصرمَ — استأذنتُ في الانصرافِ ،
فأَذِنَ الجوارِيُّ لها بعدَ إلحافِها ، على أن تزورهُنَّ كثيراً ، لسرورِهِنَّ
بلقائِها .

خرجتُ المعجوزُ مُسرَّعةً ، وذهبتُ من فورِها إلى علي ، وبُشِّرْتُهُ
بمثورِها على زمرد ، وبما اتفقتُ عليه معها .

لم يكِدْ على يسمعُ هذا الكلامَ من المعجوزِ ، حتى أَخَذَتْهُ دهشةٌ
عجيبةٌ ، عقدتُ لسانَه بعضَ الوقتِ ، لأنه ما كان يظنُّ أن تلكَ المعجوزَ

تستطيعُ بحيلها مهما أُوتيتُ من ذكاءٍ أن تُعثرُ على زمرد بهذه السرعةِ
العجيبة ، ولم يكدُ يُفَيِّقُ من دهشته حتى اندفعَ اندفاعاً لا شعورياً ،
وانكبَّ يُقبلُ رأسها ، ويلثمُ يديها ، ويقول :

أحقاً ما تقولين يا أماء ؟

أهي زمرد التي رأيتِ ؟

أهي جاريتي بعينها ؟

اندفعَ على يَقولُ ذلكَ وغيره ، والعجوزُ تربت عليه ، وتبادله
القبلات ، فرحةً بفرجه ، مسرورةً لسروره .

أسرعَ على بُعد ذلك إلى الحمامِ واستحَمَّ ، ولبسَ ثياباً نظيفةً ،
ونسَقَ هندامه ، وسَوَّى شاربه ، وتضمخَ بالطيب ، وأشرقَ وجهه ،
وفارقه العبوسُ الذي لزمه وقتاً طويلاً .

وما أقبلَ الليلُ حتى كان واقفاً بجوارِ مصطبةِ قصرِ المجوسى ينتظرُ
حلولَ الوقتِ المتفقِ عليه بينَ العجوزِ وزمرد .

ولما طالَ عليه الانتظارُ ، جلسَ على المصطبة خائفاً يترقبُ .

وكانتُ فكرةُ قرب اجتماعِ زمرد تبهيجُ نفسه ، وكان توقعُ رؤيتهِ
لها ثنائيةً يسرُّ خاطره ، ويشرحُ صدره ، وأحسَّ في جلستهِ بخدرٍ لذيذٍ
يدبُ في جسده .

ومن ثمَّ غلبه النومُ الذي كان قد طارَ عنه منذُ أيام .

وما هي إلا لحظة حتى مرَّ أمامَ على شار شخصٌ تبدو على قسَماتِ

وجَّهه علاماتُ الشرِّ ، وسماتُ اللُّصوصِ والمُجرِّمينَ . فلما أبصره نائماً
تقدَّم منه يتفرَّسه ، ويُعْمِنُ النظرَ فيه ، وسره ما رآه عليه من الملابسِ
ذاتِ الجِدةِ والرواقِ .

فمدَّ يده ، وخلعَ عنه عمامته ، ولبسها على رأسه ؛ وبينما هو يحاولُ
أن يستولى على شيءٍ آخر ، سمع صفرةً آتيةً من فوقِ رأسه ، فرفع
عينيه فرأى شبحاً في إحدى طاقاتِ القصرِ ، فعرفَ أن هذا الشبحَ هو
الذى أرسلَ الصغيرَ لسببِ لا يُدرِكُهُ ، فأجابه بصغيرٍ مثله .

وكان الشبحُ هو زمرد ، وكانت قد أطلَّت من الطاقةِ مستبِطَّة نداءً
سيدِّها ، فرأت شبحاً واقفاً فظنَّتْهُ هو ، فلما أرسلتْ بصغيرها ، وجاءها
جوابُهُ تيقنَتْ أنه هو ، فأتتْ بحبلِ العجوزِ وثبَّتَتْهُ في الطاقةِ من أحدِ
طرفيه ، وربطتْ نفسها في طرفه الآخر ، وتدَلَّتْ إلى الطريقِ رويداً ،
رويداً ، وبين طيابِ ملابسها كيسٌ مملوء بالذهب .

وأدركَ اللصُّ الذى استولى على عمامةٍ على شار أنَّ في الأمرِ سرّاً ،
وأن هذه الصبيَّة التى تتدَلَّى على الحبلِ إلى الطريقِ في ظلمةِ الليلِ —
ما هى إلا فتاةٌ تبغى الفرارَ مع هذا الشخصِ النائمِ ، وأن صغيرها ما هو
إلا العلامةُ المتفقُ عليها بينهما .

ففرح بهذا الصيدِ الثمين الذى سيقَ إليه عفوًّا .

وما وصلت الفتاةُ إلى الأرضِ حتى حملها اللصُّ على كتفه ، وأسرعَ
يطوئى بها الطريقَ طيًّا ، وكأنه البرقُ الخاطِفُ ، أو سهمٌ اندفعَ يشقُّ

أجواز الفضاء ، وتعجبت الفتاة من أمره ، ولم تملك نفسها من أن قالت :
لقد أخبرتني العجوز أنك ضعيفٌ عليلٌ بسببي ، ولكن ها أنذا أراك
على عكس ذلك : قوى البنية ، صحيح الجسم ، مفتول المضل : تحملني
وتجري وكأنك لم تحمل شيئاً ؛ فهل تجدني أخف من ريش النعام ؟
وأن الله وهب لك قوةً عظيمةً جعلتك تجري هذا الجري ، وتسرع
ذلك الإسراع ؟

فلم يرد الرجلُ عليها جواباً ؛ بل ظلَّ يجري بها دون توقفٍ أو راحة ،
وكان أبالسة الأرض تطارده ، فتحيرت زمرد في أمره ، واستراحت .
فمدت يدها لتحسس وجهه ، فصدمتها لحيه كثةٌ خشنة الملمس ،
فزعت لها نفسها ، وارتعب قلبها :

فقلت بصوتٍ متهدج ذليل ، متقطع النبرات :

يا هذا ! من أنت ؟

فرد عليها ردّاً ساخراً بصوتٍ خشنٍ أجش :

أنا جوان السكردي .

قالت ؛ وقد ازدادت رُعباً — : ومن تكون ؟

قال : أنا شاطرٌ ، من جماعة أحمد الدنف الذين يبلغون الأربعين .

قالت : وما الذي جعلك تأخذني ؟ وإلى أين تسيرُ بي ؟

قال : لقد هبطتُ أنا وزملائي إلى هذه المدينة اليوم ، وطلبتُ إليهم

أن ينزلوا ضيوفاً عليّ في الليلة القادمة ، فقبلوا الضيافة ؛ وأنا أقيمُ في

غارٍ خارج المدينة ، ومعى أُمِّي . وقد خرجتُ أَسْعَى إلى صَيْدٍ ثَمِينٍ
 أَنْفَقْتُ مِنْهُ عَلَى ضُيُوفِي ، فَسَاقَنِي حَظِّي السَّعِيدُ إِلَى الْقَصْرِ الَّذِي عَثَرْتُ
 عَلَيْكَ فِيهِ ، فَدَرْتُ حَوْلَهُ أَلْتَمِسُ مِنْفَذاً أَنْفَذَ مِنْهُ ؛ فَلَقَيْتُكَ أَنْتَ ،
 وَمَا تَحْمِلِينَ مَعَكَ ، لَقِيَةً سَهْلَةً سَائِغَةً ، فَسَأَسْتَعِينُ بِمَا تَحْمِلِينَ عَلَى نَفَقَاتِنَا ،
 وَسَأَسْتَمِينُ بِكَ عَلَى خِدْمَةِ ضُيُوفِي ، وَفَضَاءِ حَاجَتِهِمْ .

فَلَمَّا سَمِعْتَ زَمْرَ هَذَا الْكَلَامِ مِنَ اللَّصِّ انْفَجَرَتْ تَبْكِي وَتَنْتَحِبُ ،
 وَتَنْدُبُ سُوءَ حَظِّهَا ، وَظِلَامَ مَصِيرِهَا ، وَهِيَ تَقُولُ لِنَفْسِهَا — : لَا حَوْلَ
 وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ . مَا نَجُوتُ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا لَأَفْعٍ فِي أَسْوَأِ
 مِنْهَا ، وَمَا خَلَصْتُ مِنْ شَرٍّ إِلَّا إِلَى شَرٍّ مِنْهُ .

وَلَمْ تَكْفِ زَمْرُ عَنْ إِرسَالِ الْعِبَرَاتِ إِلَى أَنْ وَصَلَ بِهَا اللَّصُّ إِلَى
 الْغَارِ ، وَأَدْخَلَهَا إِلَى أُمِّهِ ، وَقَالَ لَهَا :

أَحْتَفِظِي أَيْضاً بِهَذِهِ الْجَارِيَةِ ، وَهَذَا الْمَالُ ، حَتَّى أَعُودَ إِلَيْكَ فِي
 بُكْرَةِ النَّهَارِ .

فَقَالَتِ الْأُمُّ . سَمِعًا وَطَاعَةً يَا وَلَدِي ، فَتَحَّ اللَّهُ عَلَيْكَ وَوَسَّعَ رِزْقَكَ .
 وَخَرَجَ اللَّصُّ مِنَ الْغَارِ ، وَتَرَكَ زَمْرَ الَّتِي كَانَتْ مَا تَزَالُ تَبْكِي ،
 مَعَ أُمِّهِ

وَعِنْدَ مَا بَزَغَ نَوْرُ الْفَجْرِ كَانَتِ الْأُمُّ الْعَجُوزُ قَدْ أَضْنَاهَا السَّهَرُ ،
 وَأَزَعَجَهَا بَكَاءُ زَمْرٍ ، وَشِدَّةُ نُحْيِيهَا ؛ فَقَالَتْ لَهَا :
 مَا بِأَلَّا لَا تَكْفِينَ عَنِ الْبُكَاءِ يَا بُنَيَّةُ ؟ !

فَقَالَتْ زَمْرَدُ ، وَقَدْ تَوَسَّعَتْ فِي الْعَجُوزِ بِمَعْضِ الْخَيْرِ :
وَكَيْفَ لَا أَبْكِي ؟ وَأَنَا لَا أَدْرِي مَا يُرَادُّ بِي ، وَلَا إِلَى أَى مَصِيرٍ
أَنَا مَسْوُوقَةٌ ؟ !

فَقَالَتْ الْعَجُوزُ : إِنَّهُ لَا يُجْدِيكَ نَفْعًا ، فَيَكُنِّفْنِي عَنْهُ ، وَحَاطِلِي أَنْ تَنَامِي
قَلِيلًا ، وَخُذِي هَذِهِ الْمَلَابِسَ ، فَتَوَسِّدِيهَا تَحْتَ رَأْسِكَ .
فَنَظَرَتْ زَمْرَدُ إِلَى الْمَلَابِسِ الَّتِي دَفَعَتْهَا إِلَيْهَا الْعَجُوزُ ، فَوَجَدَتْهَا تُشَبِّهُ
أَنْ تَكُونَ مَلَابِسَ أَحَدِ الْجُنُودِ .
فَقَالَتْ : مَلَابِسُ مَنْ هَذِهِ ؟

فَقَالَتْ الْمَرْأَةُ : لَقَدْ أَحْضَرَهَا وَلَدِي مَعَ هَذَا الْحِصَانِ الْمَرْبُوطِ فِي الْخَارِجِ ،
وَطَلَبَ مِنِّي حِفْظَ الْمَلَابِسِ وَالْحِصَانِ ، حَتَّى يَمُودَ فِي ضَحْوَةِ النَّهَارِ .
فَقَالَتْ زَمْرَدُ فِي حَسْرَةٍ وَانْكَسَارٍ : كَمَا طَلَبَ مِنْكَ أَنْ تَحْفَظِي
بِي أَيْضًا !!
أَجَابَتِ الْمَرْأَةُ : نَعَمْ .

فَقَالَتْ زَمْرَدُ : إِنِّي لَا أَبْنِي نَوْمًا ، فَهِيَا بِنَا إِلَى خَارِجِ الْغَارِ ، حَتَّى
نَسْتَمْتِعَ بِضَوْءِ الشَّمْسِ وَدِفْئِهَا ، فَإِنَّهَا أَوْشَكْتُ أَنْ تُشْرِقَ .
فَوَافَقَتْهَا الْعَجُوزُ عَلَى رَأْيِهَا وَخَرَجَتَا مِنَ الْغَارِ ، فَأَبْصَرَتْ زَمْرَدُ الْجَوَادَ ،
مَعْقُولًا عَلَى بَابِهِ ، وَعَلَى بُعْدٍ لَحْتُ جَسَدِ شَخْصٍ قَتِيلٍ مُلْقًى ، فَأَدْرَكَتْ أَنَّهُ
هُوَ صَاحِبُ الْمَلَابِسِ وَالْجَوَادِ ، وَقَدْ قَتَلَهُ جَوَانُ الْمَجْرِمِ ، فَاشْمَازَتْ

نفسها ، ووجِلَ قلبُها ، وَعَمِلَتْ على تدبيرِ خَطَّةٍ تَفِرُّ بها من العجوز
قبل أن يَأْتِيَ ولَدُها جوان الشَّقِيّ .

فَقَالَتْ للعجوز : أَلَا تَأْتِي يا أُمِّي حتَّى أَمْشَطَ شَعْرَكَ ، وَأَنْظِفَ
رَأْسَكَ وَأُفْلِيهَ .

فَقَالَتْ العجوز : أَيْ وَاللَّهِ يَا بَنِيَّتِي ، فَإِنْ لِي مَدَّةٌ طَوِيلَةٌ لَمْ تَطَأْ رِجْلِي
فِيهَا أَرْضَ حَمَامٍ . فَإِنْ هَؤُلَاءِ الْمَلَاعِينُ لَا يَكْفُونُ عَنِ الطَّوَافِ بِي مِنْ
مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ .

وَأَسَامَتْ رَأْسَهَا إِلَى زَمْرَدٍ ، فَوَسَّدَتْهَا نَحْدَهَا ، وَجَعَلَتْ تُقَلِّ شَعْرَهَا ،
وَتَمْسَحُ بِرَفَقٍ عَلَى جِلْدِهَا ، وَتَغْنِي لَهَا ؛ وَصَادَفَ أَنَّ الْجَوَّ كَانَ جَمِيلًا ،
وَأَنَّ النَّسِيمَ كَانَ رَفِيقًا ؛ فَاسْتَلَذَّتِ الْمَرْأَةُ بِذَلِكَ كُلَّهُ ، وَارْتَاحَتْ لَهُ ،
وَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ غَلَبَهَا النَّوْمُ فَنَامَتْ .

فَأَرَقَدَتْهَا زَمْرَدٌ عَلَى الْأَرْضِ بِرَفَقٍ خَوْفًا مِنْ أَنْ تَسْتَيْقِظَ ، وَأَسْرَعَتْ
إِلَى مَلَابِسِ الْجُنْدِيِّ فَلَبَسَتْهَا . وَتَقَلَّدَتْ سَيْفَهُ ، وَتَعَمَّمَتْ بِعِمَامَتِهِ ، وَأَخَذَتْ
كَيْسَ الذَّهَبِ ؛ وَامْتَطَيْتِ الْجَوَادَ وَسَارَتْ بِهِ . فَصَارَتْ لَا تَخْطِي الْعَيْنُ
فِي أَنَّهَا رَجُلٌ .

وَلَكِنَّمَا مَعَ ذَلِكَ أَحْجَمَتْ عَنِ الرَّجُوعِ إِلَى طَرِيقِ الْمَدِينَةِ خَوْفًا مِنْ
أَنْ يَرَاهَا جَوَانُ الْكُرْدِي ، فَيَفْطِنَ إِلَى أَمْرِهَا ، أَوْ أَنْ يَرَاهَا أَهْلُ الْجُنْدِيِّ
صَاحِبِ الْمَلَابِسِ وَالْحِصَانِ ، فَيَفْتَضِحَ أَمْرُهَا وَتَسُوءَ عَاقِبَتُهَا ، وَتَوْخِذَ
بِجَرِيعَةِ جَوَانٍ فِي قَتْلِ الْجُنْدِيِّ . فَوَلَّتْ وَجْهَهَا نَحْوَ طَرِيقٍ آخَرَ ،

واستحثت الجوادَ في السير ، لتقطعَ مرحلةً يشقُّ على من يُطاردها اقتفاءً
أثرها فيها

(٣)

أخذت زمرد تدب في صحراءٍ موحشةٍ قاحلةٍ ، كلما تقدمتُ فيها لا تجدُ
إلا البرارى التى لا ينتهى الطرفُ إلى مداها ، والبطاح الواسعة التى تضل
الأدلاء فيها ، لا يصادفها بها نباتٌ تتغذى هى وحصانها منه ، ولا ماء
لشربهما ، فعوضهما الجوعُ ، وكاد العطش يلهبُ أحشاءهما ، وأدركتُ
ألا نجاة من الهلاك .

فأرختُ لجوادها العنان ، وتركته يمشى فى تلك المتاهة من غير قيادَةٍ
فلم توجهه يميناً أو شمالاً ، ولكن أسأمتُ أمرها الله ، وجعلت جوادها
يختار لها ، فقد يكون ذلك سبباً فى نجاتها ، وتخليصها من هلاك مُحقق ،
وكان أملها فى النجاة عظيماً ، لأنها خيرةُ نافعة ، والخيرُ من النافعون يخلصهم
الله مما عسى أن يقعوا فيه من مكروه .

سار الجواد بزمرد لا تهديه إلا حاسسته ، ولا يرشده إلا حاجته إلى
الارتواء ، وبعد وقتٍ عَصِيبٍ مرَّ بزمرد ، لا تدري أطلَّ بها أم قَصُرَ —
أبصرتُ من خلالِ أجفانها المنكسرة منطقة خضراء تلوح أمامها .
نشيط ، وهمت ، ورفعت رأسها ، وشخصتُ ببصرها إلى تلك الخضرة
الجميلة ، بعد أن حرمت — بعض الزمن — رؤية كل شيء ، إلا رؤية

الأرضِ القاحلةِ الجرداءِ ، وكانت كلما قرُبت من الوادى ، تأكّد لها أنه وادٍ عامر ، فأسرعتْ في الانتهاء إليه .

وصلتْ إلى جنة الصحراء ! فرأت مساحةً بها ثمارٌ وماء ، ما أجملها في عين زمرّد ! وما أبهجها في نفسها بعد ما عانتْ وقاستْ ، واحتملتْ !!

أكبت على الماء تُروى ظمأها ، وتُطفئ نار عطشها ، وكذلك فعل جوادُها : وضع فيه في قناة الماء ، وأخذ يعبُّ حتى امتلأ . ثم انصرفتْ زمرّد بعد ذلك ، ومعها جوادُها إلى ما في تلك الجنة من ثمر وعُشب ، فأكلت هي من الثمر حتى شبعمت ، ورعى جوادُها العشبَ حتى امتلأ .

وبعد الراحة والاستجمام ، والتزوّد بالزاد — استأنفتْ زمرّد الرحيلَ ، تاركةً لجوادِها الخيارَ في اختيار الطريق الذى يُريد فلعله يصلُ إلى جنةٍ أخرى ، تجدُ فيها ناساً تطمئنُّ إليهم ، ويطمئنُّون إليها ، فتستطيعُ أن تدبرَ لها حياةً معهم أو أن تعودَ بمعاونتهم إلى بلدها وسيدها .

وسلكَ الحصانُ طريقاً مأموناً مأمولاً ، انتهى بها بعد أيام قليلة إلى ظاهرِ مدينةٍ كبيرة ، يحيطُ بها سورٌ متين البنيان ، فلما قرّبتْ زمرّد من باب المدينة رأتَه يحتشدُ أمامه خلقٌ كثير تدل هيئتهم على أنهم من ذوى المكانة فيها . كما رأتْ عدداً كبيراً من الجنودِ مصطفين على جانبي الباب .

فحدثتها نفسها قائلة :

يا ترى ! ما مآلُك في هذا البلد ؟! وهل يقبلُك به هؤلاء القومُ المنتظرون

أَوْ هُمْ سَيَخُولُونَ تَيْنَكَ وَبَيْنَ دُخُولِهِمْ ۖ وَمَا سِرُّ تَجْمِيعِهِمْ هَذَا ، وَتَطْلِعُهُمْ
جَمِيعًا إِلَى نَاحِيَّتِكَ ۚ ۱۲

وَمَا كَانَ أَشَدَّ دَهْشَتَهَا ، وَأَبْلَغَ عَجَبِهَا ، حِينَما أَبْصَرَتِ الْجُنُودَ يَحْيُونَهَا ،
وَيَتَسَابِقُونَ إِلَيْهَا ؛ ثُمَّ يَتَرَجَّلُونَ عَنْ خِيُولِهِمْ ؛ وَيُقْبَلُونَ الْأَرْضَ بَيْنَ
يَدَيْهَا ، هَاتِفِينَ :

اللَّهُ نَاصِرُكَ يَا مَوْلَانَا السُّلْطَانُ ۚ ۱۱

ثُمَّ مَا كَانَ أَعْظَمَ حَيْرَتَهَا ، حِينَما التَفَّ حَوْلَهَا جَمَاعَةُ الْمُسْتَقْبَلِينَ ، وَهُمْ
جَمِيعًا فِي زِيِّ الْأُمَرَاءِ ، وَالْوُزَرَاءِ ، وَأَكْبَرِ رِجَالِ الدَّوْلَةِ ؛ يَقْدُمُونَ إِلَيْهَا
آيَاتِ التَّبَجُّيلِ ، وَوَاجِبَ الْوَلَاءِ ، وَيَلْقَبُونَهَا بِالسُّلْطَانِ .

وَنَادَى الْجُنُودُ فِي النَّاسِ ؛ يُمْلِنُونَ قَدُومَ السُّلْطَانِ ، وَيَقْدُمُونَهُمْ لَهُ ،
فَيَمْرُثُونَ أَمَامَهُ فِي خُشُوعٍ وَخُضُوعٍ ، طَالِبِينَ لَهُ التَّأْيِيدَ ، دَاعِينَ لَهُ
بِالنَّصْرِ وَالتَّوْفِيقِ

وَنَفَضَتْ زَمْرُودُ عُنُقِهَا وَجَلَّهَا ، وَاسْتَمْسَكَتْ ، وَقَوَّيْتُ ، وَمَلَكَتْ
قَلْبَهَا ، وَأَذْهَبَتْ عَنْ نَفْسِهَا كُلَّ مَظَاهِيرِ الدَّهْشَةِ وَالْخَيْرَةِ وَالْاضْطِرَابِ ،
وَوَقَفَتْ خَطِيئَةً فِي هَوْلِاءِ النَّاسِ ، وَقَالَتْ لَهُمْ :

— مَا خَبَرُكُمْ يَا أَهْلَ هَذِهِ الْمَدِينَةِ ؟ ! وَمَا شَأْنُكُمْ ؟ !

فَقَالَ كَبِيرٌ مُقَدَّمٌ فِيهِمْ لَقَدْ أَعْطَاكَ مِنْ لَا يَبْخَلُ بِالْعَطَاءِ ، فَجَعَلَكَ
سُلْطَانًا عَلَى هَذِهِ الْمَدِينَةِ ، وَحَاكِمًا عَلَى رِقَابِ مَنْ فِيهَا . فَاعْلَمْ أَنَّ مِنْ عَادَةِ
أَهْلِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ أَنَّهُ إِذَا مَاتَ مِلِكُهُمْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ — تَخْرُجُ

العساكر إلى ظاهر المدينة ، ويعكثون ثلاثة أيام ، فأى إنسان جاء من طريقك الذى جئت منه يجعلونه سلطاناً عليهم . والحمد لله الذى ساق لنا إنساناً جَيِّلاً ، ظريفاً ، مثلاً ، تدل هيئته على كرم الأصل ، ويحدث خبره عن طيب العنصر . ولو جاء من هو أقل منك شأنًا ، لكننا نصبناه علينا سلطاناً .

وما عرفت زمرد منهم هذا ، حتى استردت شجاعتهما ، واستحضرت حصافتهما ، وسرعة بديهتهما ، وعولت على مسaire القوم فى اعتقادهم أنها رجل ، ورضيت لنفسها أن تنصب سلطاناً ، وتلبس ثياب الملك : تحكم ، وتولى ، وتعزل ، وتأمر ، وتنهى ، وتقود الجيوش ، وتسب القوانين وتفعل كل ما يفعله الملوك الذين أطلقت أيديهم فى حكم تلك المدينة .

— ولما استقر رأيها على ذلك توجهت إلى القوم ، ووقفت تعظم نفسها ، وترفع من قدرها ، لتلقى الرعب فى قلوبهم ، وتجعلهم يخشونها . ويحسبون لها حساباً كبيراً ، وكان مما قالته :

— نعم إننى لست من أولاد العامة والشوكة . بل إنى من أولاد الأمراء ، ومن سلالة الملوك ، ويجرى فى عروقي دم الحكام الأشداء الذين يتولون ، ويعدلون فيمن يستحقون العدل ، ويضربون بيد من حديد على كل من تحدته نفسه بالعصيان ، أو التمرد ، أو الخروج على القانون ، وإن آبائى وأجدادى كانوا فى سلطانهم لا يعرفون فى الحق هوادة ، وكانوا

إذا بطشوا بطشوا جبارين ، وأنا من سلاله هؤلاء القوم : رأيت أبي وإخوتي تجاوزوا حد الاعتدال في البطش بالأبرياء في ممالكهم ، فلم يرُضني هذا منهم ، ورأيت أن العدل ، والشفقة ، والرحمة ، والبر بالفقراء ، ورعاية اليتامى ، ومعالجة المرضى ، وتعليم الجاهل رأيت هذا وغيره من الأمور التي يجب أن يتحلّى بها ذوو السلطان ، الملوك في الناس لأن الله سبحانه وتعالى لم يعلّمهم إلا ليعملوا بين عباده ، ويسمّروا على راحتهم . وقد ساقني الله إلى بلدكم لتولّى أموره ، وتصريف شئونه وأتيت بهذا المال الكثير ، الذي ترون البقية الباقية منه على ظهر جوادي ، وكنت كلما قابلي أحد في طريق إليكم من الفقراء والمحتاجين ، واليتامى والأرامل — نفخته بكرة من المال ، يستعين بها على زمانه ، حتى أدبر له مرتزقا يكسب منه رزقه .

فازداد سرور القوم بها ، وأحسوا أنهم سيشهدون لونا جديداً من الحكم ، لم يروه هم ولا غيرهم من قبل ، ودعّوها إلى السير معهم إلى داخل المدينة ووصلوا بها إلى قصر مُنيف ، واسع الرحبات ، وحملها الأمراء حتى أجلسوها على كرسى العرش .

— فنظرت زمرد حولها ، وقد أخذتها رهبة وهيبة ، وتمتت تقول لنفسها :

يا ربّي ، أغنى على ما وضعت نفسي فيه مُسيرة لا تُخيرة ، ولا تفضح لي أمراً ، ويسر لي اجتماعي بسيدي على شار ، فقد أستطيع مستعينة بما

هَيَّا اللَّهُ لِي مِنْ مُلْكٍ وَسُلْطَانٍ — أَنْ أَحْتَالَ عَلَى لِقَاءِ سَيِّدِي ، وَمَنْ يَدْرِي
فَقَدْ أُسْتَطِيعُ أَيْضًا أَنْ أَهْيَأَ لَهُ ذَلِكَ الْمُلْكُ ، فَيَكُونُ حَاكِمًا بِأَمْرِهِ فِيهِ ؛ وَإِنْ
لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ فَلَا فَرْأَا وَأَنَا وَهُوَ لَنَعِيشَ سَعِيدَيْنِ هَانِئَيْنِ بَقِيَّةَ عُمُرِنَا !!
ثُمَّ لَمْ تَلَبَّثْ أَنْ اسْتَجْمَعْتَ أَمْرَهَا ، وَقَوْتَ مِنْ رُوحِهَا ، لَتَنْظُرَ فِي شُئُونِ
الْمُلْكِ الَّتِي أَلْقَيْتُ كَرْهًا عَلَى عَاتِقِهَا . فَأَمَرْتُ بِفَتْحِ خَزَائِنِ الْمَالِ ، وَإِحْصَاءِ
مَا فِيهَا ، وَوَزَعْتُ عَلَى الْمُسْكِرِ هَبَاتٍ سَخِيَّةً ، فَفَرَحُوا بِالسُّلْطَانِ الْجَدِيدِ ،
وَدَعَوْا لَهُ بِالْخَيْرِ ، وَتَمَنَّوْا أَنْ يَدُومَ مَلِكُهُ ، مَا دَامَ يَرْعَاهُمْ بِرِعَايَتِهِ ، وَيُعْنِي
بِشُئُونِهِمْ عَنَايَتَهُ بِنَفْسِهِ .

وَاسْتَعْرَتْ زُمُرْدُ تَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ، سَنَةً كَامِلَةً ،
لَا تَبْغِي غَيْرَ رَاحَةِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، وَلَا تَنْشُدُ غَيْرَ رِفَاهِيَّتِهِمْ ، وَاتَّقِ الشَّرَّ الْأَمْنِ
وَالسَّلَامِ بَيْنَ رُبُوعِهِمْ ، وَكَانَتْ حَرِيصَةً عَلَى إِخْفَاءِ أَمْرِهَا ، وَالْإِحْتِفَازِ
بِسِرِّهَا ، مَا أَمَكْنَهَا ؛ مُتَعَلِّمَةً بِبُيُوتِ قَرِيبٍ يَسُوقُ اللَّهُ لَهَا فِيهِ سَيِّدَهَا عَلَى
شَارِفِ تَحْتَالٍ عَلَى أَنْ تَوَلِّيَهُ الْمُلْكُ ، أَوْ تَتْرَكَهُ وَتَتْرَكَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ ، الَّذِينَ
بَايَعُوهَا ، وَمَلَكُوهَا ، وَابْتَدَتْ فِيهِمْ تَقِيَّةَ الْيَدِ طَاهِرَةَ الذِّيلِ ، عَفِيفَةَ اللِّسَانِ .
ابْتَعَدَتْ عَنْ مَقْصُورَاتِ الْجَوَارِي وَالسَّرَارِيِّ ، وَرَتَبَتْ لَهَا الرُّوَاتِبَ ،
وَالْجَرَايَاتِ لِإِرْضَائِهِنَّ ، وَأَفْرَدَتْ لِنَفْسِهَا صُومَعَةً بِحُجَّةِ الْمَكُوفِ فِيهَا عَلَى
التَّبَتُّلِ وَالْعِبَادَةِ ، لَا يَقُومُ بِخِدْمَتِهَا فِيهَا غَيْرُ غُلَامَيْنِ صَغِيرَيْنِ .

وَلَكِنْ انْتِظَارَهَا طَالَ ، وَلَمْ تَسْمَعْ لِعَلِيٍّ شَارِ اسْمًا ، وَلَا خَبْرًا ،
فَنَفِدَ صَبْرُهَا ، وَقَلَقَتْ ، وَاسْتَبَدَّ بِهَا الْقَلَقُ ، وَفَكَّرَتْ فِي تَدْيِيرِ

أمر عساه يأتيها بخبر، أو نبأ يقين .

فأصدرت أمرها بإنشاء ميدانٍ فسيحٍ في جانب القصر : طوله فرسخٌ، وعرضه فرسخ، فاهتمَّ المهندسون بإنشائه، ولما أتمَّوه على حسب رغبتها، أعدت لنفسها مجلساً في صدره، وأمرت بنحر الذبائح، وطهيها، وإعداد سِماطٍ كبير حوى مالدَّ وطاب من المأكَل . ثم أمرت بالمناداة في المدينة على أنه لا يبقى فيها رجل، أو شاب، أو غلامٌ؛ ولكنهم يأتون جميعاً للأكل من سِماط السلطان .

ففرح الناسُ، وهبوا جميعاً يسيرون أفواجاً وجماعات إلى الميدان الجديد، المجاور للقصر حيث مد السِماط، وأعد للوافدين على الميدان نظامٌ خاص : فهم يدخلون بترتيب، ونظامٍ مرسوم؛ ويتخذ كلٌّ منهم مجلسه أمام الطعام، والسلطان جالسٌ في صدر المسكن، شاخصُ البصر نحو الباب يتصفَّح وجوه الداخلين .

فلما فرغ القومُ من تناول الطعام، قال لهم أحدُ أعوان السلطان :
إن السلطان يأمرُكم بالمجيء إلى هنا إذا ما هلَّ هلال كلِّ شهرٍ للأكل من مثل هذا السِماط وإياكم أن تتخلَّفوا .

فقالوا : سمعاً، وطاعة، ودعوا للسلطان بالعزِّ والتأييد، وتمنَّوا على الله أن يدوم عليهم حكمه؛ فهم يُحبونه من قلوبهم، لمطفه عليهم، ورِفِّقه بهم، وسهره على رعاية مصالحهم .

ومرت الأشهر، وفي هلال كل شهرٍ يعد سِماطُ السلطان، ويجتمع عليه



الناسُ ، وهم فرحون ، فيأْكُلون ما شاءوا أن يأْكُلوا ، ثم يسْمرون ما شاءوا أن يسْمروا ؛ ويظْلون كذلك حتى يأْذنَ لهم الملكُ بالانصراف . يحدث ذلك كله والملك (زمرد) جالسٌ على منصّة عالية ، يتصفّح وجوهَ الناس لعله يحدُّ ضالّته بينهم ، ولكنه لم يحدّها ؛ ولكنه لم ييأس لأن شوق زمرد إلى لقاءٍ علىّ جعلها تتوقّع العثور عليه في هذه المدينة وظنّت أنه قد يتخلف عن السّماط مع المتخلفين فأرسلت منادياً ينادى في المدينة :

يا معشر الناس ، كلُّ من فتحَ دكانه ، أو متجره ، أو تخلفَ في منزله عن سّماط الملك غَضِبَ عليه ، وأنزلَ سخطه به ، وعاقبه أشدَّ العقاب ، سواء أكانَ من أهل المدينة أم من الغرباء ، وسيرقب الملك الحال بنفسه ، وبمن يصطفيه من أَعوانه ، الذين سيفتَشُون في كل متجر ، وفي كل دَرَب وفي كل حارة ، بل في كل بيت ؛ فإذا عثر على متخلفٍ حقَّ عليه العقاب . فاما هَلَّ الشهرُ الجديد ، ومُدَّ السّماطُ ، أقبل الناسُ جميعاً إليه مُهرواين ، وما تخلفَ منهم أحدٌ ؛ وجلسوا يأْكُلون و زمرد تنظرُ إليهم ، متصفّحة وجوههم وجهاً وجهاً ؛ وكلُّ واحد منهم يشعر بنظراتها إليه ، ويظن أنها لا تحولُ وجهها عنه ، فيقول لنفسه : إن الملك لا ينظر إلا إلىّ .

وبينما زمرد تتأمّل وجوهَ الوافدين ، أبصرت برسومَ الجوسى ، الذى أخذها مع أخيه من منزل سيدها ، فعرفته ، فتنهدت تنهدة الراحة التى نزلت برداً على قلبها ، فقد مكنها الله من عدوها ، ووضعت يدها على

أول الخيطِ الذى سيصلُها بسيدها ؛ وقالت فى نفسها :
هذا بابُ الفرج .

ورأت برسوم يتقدّم ، ويجلسُ مع الناسِ الأكل ، فنظر إلى قصعةٍ
كبيرة من حلوى الأرز ، وهى مصنوعة من أرز ملبون فى السكر مدفون ،
مُزَيْنَ بمطحون الفستق — وكانت بعيدةً عنه — فزحم من بجانبه ، ومدَّ
يده ، فأخذها ، ووضعها أمامه ، فقال له الرجل الذى بجانبه :

لم لا تأكل مما أمامك ؟ أليس هذا العملُ يشائِنُ لك ؟ ألا تخشى أن
يَصِفَكَ الناسُ أنك رجلٌ شره لا تحب إلا نفسك ؟ ! ألا تخشى أن تكون
عينُ الملك واقفةً عليك الآن ، فتؤلمه أنايتك ، وإيثارك نفسك بأشهى
الطعام ؟ !

فقال — : إن آكل إلا منه .

فقال الرجل — : كل : وأنتَ وشأنك : لا هناك الله به .

فقال رجل آخر يبدو عليه الفقرُ : دعه يأكل منه ، حتى آكل
أنا الآخر منه .

فقال برسوم : يا أبخسَ الخلقِ : إن هذا ليسَ بما كُولىكم ، وإنما
هو مأكول الأمراء فاتركوه حتى يأكل منه من هم أهلُ له
ثم مد يده إلى الطبق ، وأخذ منه لُقمة ، ووضعها فى فمِه ؛ وأراد أن
يأخذ الثانية ، فصاح الملكُ فى الخند :

اثتوني بهذا الرجل الذى يأكل من طبق الأرز الحلو ، ولا تدعوه
يأكل ما فى يده .

— فهجم الجنود على برسوم ، وسحبوه على وجهه سحباً عنيفاً ،
ونصبوه أمام الملك بعد أن ألقوا باللقمة من يده . دهش الناس ،
وسكتوا ، وسكنوا كأن على رؤوسهم الطير وكفوا عن تناول
الطعام ، وأخذوا ينظرون ما يفعله الملك ؛ وأخذ يقول بعضهم لبعض : والله
إن هذا الرجل لظالم ؛ حيث لم يقنع بما أمامه من الطعام ومد عينيه إلى
الطعام الذى أمام غيره .

فقال رجل كان مجلسه بالقرب من مجلس برسوم :

لقد قنعت أنا بهذا الكشك الذى كان أمامى .

وقال الفقير الذى كان يتعنى أن يأكل من حلوى الأرز : الحمد لله
إننى لم آكل منه شيئاً .

ولما مثل برسوم المجوسى بين يدى زمرّد ، قالت له :

ويلك يا رجل ! ما اسمك ؟

وما سبب قدومك إلى بلادنا ؟

فأنكر الرجل شخصيته وقال : يا ملك الزمان ؛ اسمى على ، وصناعتي
حائك وجئت إلى هذه المدينة من أجل التجارة .

فقالت زمرّد لحبايها : اثتوني بتخت رمل ، وقلم من نحاس .

فجىء بما طلبته فى الحال .

فتناولت القلم ، وأخذت تخطُّ به في تحت الرمل ؛ ثم رسمت به صورة مثل صورة القرد ، ورفعت رأسها تأمل في برسوم وقتاً طويلاً ، وقالت له :

— يا وقح ، كيف تكذبُ على الملوك ؟!

أما أنت فمجوسى ، واسمك برسوم ، وقد أتيت حاجة تبحثُ عنها ؟! اصدقنى الخبر ، وإن لم تفعلْ فلاضرين عُثَقك على ملاٍ من أهل مملكتى جميعاً .

فارتبك برسوم ، وأرتججَ عليه ، وتلججَ ، وانعقد لسانه ، ولم يستطع أن ينطقَ حرفاً واحداً .

ودهش الحاضرون من عِظَمِ مقدرةِ الملك ، وتعلَّكهمُ العجب ، وصحتوا جميعاً يتطلعون إلى ما سينتهى إليه الأمر ، فسمعوا الملك يهيبُ بالمجوسى متهدداً ، متوعداً :

اصدقنى الخبر قبل أن أهلكك .

فقال المجوسى بصوت مخنقٍ ، وكان جسمه يرتعدُ خوفاً :

العفو والمغفرة يا ملك الزمان ، إنك صادقٌ في ضرب الرمل . . فإنى مجوسى ولستُ على دينِ أهلِ هذه المدينة .

فابقى في الحاضرين أحدٌ إلاوقد بهت . وازداد تقديرهم للملكهم ، واشتد تهيبهم له ، وخوفهم منه ، واحترامهم إياه .

وأخذوا يرددون يا عجب وخشوع :

إن هذا الملكَ منجمٌ عارفٌ ، يحذقُ علمَ النجوم ، ويجيد ضربَ الرمل
فلا يوجد في العالم مثله !

وأصدر الملكَ حكمه على المجوسىّ ، بأن يُسلَخَ جلدهُ ، ويُحشىَ تبنًا ،
ويعلَّقَ على باب المدينة ، وأن تحفرَ حفرةَ خارجَ المدينة يحرقَ لحمه
وعظمه فيها ، وأمر جنده أن ينفذوا حكمه على عجل .

فقالوا : سمعاً وطاعة .

وأخذوا المجوسىّ ، وكبوه على وجهه ، وذبحوه من قفاه ، ثم سلَخوا
جلده ، وحشوه تبنًا ، وصنعوا منه بؤًا ، وعلَّقوه على باب المدينة ؛ ثم
جروا لحمه وعظمه ، وخرجوا به إلى ظاهر المدينة ، وجمعوا حطبًا ،
وأوقدوا نارًا ، وألقوا فيها لحم المجوسىّ وعظمه ، حتى إذا أُحرقَ وذرى
فى الهواء ، انفض الناس ولا حديث لهم إلا المجوسىّ وما حدث له .
فن قائل :

إن جزاء هذا المجوسىّ قد حلَّ به ، وهو يستحقُّه ، لأنه دَخَلَ
مدينتنا من غير أن يُؤذَنَ له ، ولأنه كَذَبَ على الملكِ ؛ وإذا كان
الكذبُ شنيعًا بشعًا على الناسِ بعضهم وبعض ، فهو أشدُّ بشاعةً
وشناعةً إذا كان على الملوكِ والحكام ، وأولى الأثر ، لأن الكذبَ
عليهم غشٌّ لهم ، وخداعة ، وقد يترتبُ على ذلك أمورٌ خطيرة ، لا ينتهى
ضررها عند الملوكِ وحدهم ، فقد يمتدُّ ذلك إلى رعاياهم ، فيصيبهم

ما يَصِيدُهُمْ فِي مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ ، وَلَا ذَنْبَ لَهُمْ إِلَّا أَنْ رَجُلًا كَذَبَ عَلَى الْمَلِكِ فَعَشَّهَ وَخَدَعَهُ .

ومن قائل :

مَا كَانَ أَشَأْمَهَا لَقَمَةً ! وَمَا كَانَ ضَرْكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ لَوْ قَنَعْتَ بِمَا
أَمَامَكَ ، وَأَكَلْتَ مِمَّا تَحْتَ يَدِكَ ؟ وَمَا كَانَ ضَرْكَ لَوْ تَأَدَّبْتَ مَعَ النَّاسِ
فَجَعَلْتَهُمْ يَشَارِكُونَكَ فِي طَبَقِ الْحُلُوى الَّذِي اغْتَصَبْتَهُ مِنْ مَوْضِعِهِ ، وَنَقَلْتَهُ
أَمَامَكَ !

وَمَا كَانَ أَجَلَ أَنْ تُقَدِّرَ أَنَّكَ غَرِيبٌ دِينًا ، وَأَنَّكَ غَرِيبٌ وَطَنًا ،
فَلَا أَقْلَ مِنْ أَنَّكَ تَحْسِنُ مَعَامَلَةَ النَّاسِ ، وَتَتَوَدَّدُ إِلَيْهِمْ لِتَسْتَطِيعَ أَنْ
تَنْتَفِعَ بِهِمْ ، وَتَسْتَعِينَ بِمَعْرِفَتِهِمْ .

ومن قائل :

لَقَدْ عَاهَدْتُ نَفْسِي أَلَّا أَذُوقَ أَرْزًا مَلْبُونًا ، فِي السَّكْرِ مَدْفُونًا ،
مَا دُمْتُ حَيًّا ؛ فَقَدْ يَصِيبُنِي مِنْهُ مَا أَصَابَ ذَلِكَ الرَّجُلَ الْغَرِيبَ
الْكُذَّابَ .

وقال الفقير :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي مِمَّا حَلَّ بِهِ ، حَيْثُ حَفِظَنِي مِنْ أَكْلِ ذَلِكَ
الْأَرْزِ الْمَشْتُومِ .

وَلَمَّا كَانَ الشَّهْرُ الْجَدِيدُ ، مَدَّ السَّمَاءُ عَلَى جَرَى الْعَادَةِ ، وَصَفَّتْ
فَوْقَهُ الْأَطْبَاقُ فِي نِظَامٍ بَدِيعٍ ، وَتَنَسَّقِي جَمِيلٍ ، وَأَقْبَلَ النَّاسُ يَتَخَذُونَ

مجالسهم ، وهم يسارقون النظرَ إلى طبقِ الأرز ، فإذا هو في مكانه ، فصاروا يتجنبون الجلوسَ أمامه ، وينصحُ بعضهم بعضاً بعدم الاقتراب منه .

— حدث كل ذلك ، وزمرد تنبأ مكانها في صدرِ المجلس .

وبينما هم يأكلون في احتراسٍ ، وينظرونَ إلى طبقِ الأرزِ في خِيفَةٍ وتوجُّسٍ ، كانت زمرد تنظرُ إليهم ، فأبصرت شخصاً يهروُلُ داخلاً من بابِ الميدان . فما وَقَعَ نظرها عليه حتى عرفت فيه اللصَّ جوان الكرديّ الذي اختطفها وفرت منه ، فتمتعتْ تقول في نفسها : وأنت أيضاً قد ساقك الله إلى ، ليمكنني منك ، ويضع رقبتك في يدي .

والذي ساق جوان إلى مدينة زمرد . هو أنه لما تركها مع أمه ذهب إلى رفاقه ، وأخبرهم بما صادفه من الحظ السعيد ، بحصوله على فتاة جميلة فاتنة ، تساوى قدرًا كبيرًا من المال ، وهي مع ذلك معها كيسٌ مملوء بالذهب ، وأخبرهم أيضاً أنه حصل عليها بعد أن صادف في طريقه جنديًا قويًا ، كان راكبًا جواده ، وصار يتعسس في الليل مختالاً في حلته العسكرية لحمل عليه حملةً شديدة ، وباغته ، وضربه ضربةً أصابت منه مقتلاً ، ثم خلع حلته العسكرية ، وأخذها ، وأخذ الجواد .

فقالوا له : وأين هذا كله ؟

فأخبرهم أنه عند أمه في الغارِ خارج المدينة ، فقرحوا بذلك أيّما فرح

وتوجَّهوا جميعاً معه إلى الغارِ . مُنَّينَ أَنْفُسَهُمْ بِلَيْلَةٍ هَنِيئَةٍ سَعِيدَةٍ ، يَقْضُونَهَا
بين السمرِ والأكل والشراب .

فلما وصلوا وجدوا المكانَ قفراً ، إِلَّا مِنْ أُمِّ جِوَانٍ ، فَاسْتَعْجَبَ ،
وَسَأَلَ أُمَّهُ فِي غُفٍّ : مَا الْخَبْرُ ؟ فَأَخْبَرَتْهُ بِمَا حَصَلَ مِنْ زَمْرَدٍ ، فَاسْتَشْطَبَ
غَضَبًا ، وَعَنَّفَ أُمَّهُ عَلَى سُوءِ تَصَرُّفِهَا ، وَعَلَى غَبَاوَتِهَا الْمُطَبَّقَةِ ، وَعَلَى
غَفْلَتِهَا الَّتِي كَانَتْ السَّبَبَ فِي ضَيَاعِ هَذَا الْكَتْرِ الثَّمِينِ ، الَّذِي كَانَ بَيْنَ
يَدَيْهِ . وَصَارَ يَعْضُ بَنَانَهُ نَدْمًا ، عَلَى تَرْكِهِ الصَّيْدَ الثَّمِينِ مَعَ أُمِّهِ .
حَدَّثَ هَذَا وَرَفَاقَهُ مَا بَيْنَ رَاتٍ لَهُ ، وَهَازِيٍّ بِهِ ، وَشَامِتٍ فِيهِ ،
وَصَاحَكَ عَلَيْهِ .

— وَصَارَ يَقْسِمُ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ عَثْوَرِهِ عَلَى زَمْرَدٍ ، وَأَنَّهُ سَيَبْحَثُ
حَتَّى يَجِدَهَا ، وَإِنْ اتَّخَذَتْ تَفَقًّا فِي الْأَرْضِ ، أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ .
فَلَمْ يَسْمَعْهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ أَخْرَجُوا أَلْسِنَتَهُمْ وَأَجْرُوا أَصَابِعَهُمْ عَلَى أَنْوْفِهِمْ ،
فَزَادُوهُ غَيْظًا وَحَدَّةً ، وَرَفَعَ صَوْتَهُ ، وَأَعَادَ قِسْمَهُ : لِيَأْتِيَنَّ بِهَا ذَلِيلَةً ،
وَلِيَذِيقَنَّهَا الْعَذَابَ أَلْوَانًا ، وَلَوْ أَخْفَتُهَا الْأَبَالِسَةُ ، أَوْ تَحَصَّنَتْ بِالْبُرُوجِ
الْمَشِيدَةِ .

وَهَكَذَا خَرَجَ بَاحِثًا عَنْهَا فِي كُلِّ الْمَدُنِ ، حَتَّى سَاقَهُ تَجْوُلُهُ إِلَى مَدِينَةِ
زَمْرَدٍ ، فَدَخَلَهَا فِي الْيَوْمِ الَّذِي يُمَدِّفُهُ سَمَاطُ الْمَلِكِ . فَلَمَّا دَخَلَهَا وَجَدَهَا خَالِيَةً
مِنَ الْمَارَّةِ ، مُغْلَقَةً الدَّكَائِينَ ، وَلَيْسَ بِهَا مَا يَدُلُّ عَلَى الْحَيَاةِ إِلَّا بَعْضُ
النِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ يَنْظُرُونَ مِنْ نَوَافِذِ دُورِهِمْ . فَلَمَّا رَأَوْهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ مُسْتَعْرَبًا

حالهم ، عَرَفُوا أَنَّهُ غَرِيبٌ ، فَأَعْلَمُوهُ أَنَّ سِمَاطَ الْمَلِكِ مَمْدُودٌ الْيَوْمَ ، وَمَنْ لَمْ يَحْضَرْ يُقْتَلُ شَنْقًا ، وَدَلُّوهُ عَلَى مَكَانِ السِّمَاطِ ، فَهَرُولَ إِيَّاهُ مُسْرِعًا ، وَدَخَلَ الْمِيدَانَ ، فَوَجَدَ مَكَانًا خَالِيًا ، وَهُوَ الْمَكَانُ الَّذِي أَمَامَ طَبَقِ الْأَرْزِ الْمَهُودِ ، فَجَلَسَ فِيهِ ، وَوَقَعَتْ عَيْنُهُ عَلَى مَا فِي الطَّبَقِ ، فَسَالَ لَمَابِهِ ، وَتَلَمَّظَ رَهْمًا بِالْإِقْتِضَاضِ عَلَيْهِ . فَصَاحَ بِهِ مَنْ جَاوَرَهُ :

يَا أَخَانَا . مَا تُرِيدُ أَنْ تَعْمَلَ ؟

قَالَ : أُرِيدُ أَنْ آكُلَ مِنْ هَذَا الطَّبَقِ حَتَّى أَشْبِعَ ، فَإِنِ كُنْتُ عَلَى سَفَرٍ ، وَعُضِّنِي الْجُوعُ ، حَتَّى صَاحَتْ عَصَافِيرُ بَطْنِي .

قَالُوا : إِنْ تَأْكُلَ مِنْهُ تَصْبِحَ مَشْنُوقًا !

فَقَالَ : كَفُّوا عَن هَذِكُمْ ، فَلَيْسَ هَذَا وَقْتُ الْمَزَاحِ ، وَإِذَا امْتَلَأْتُ بَطْنِي مِنْ هَذَا الطَّبَقِ فَإِنِ مَسْتَعِدٌّ لِمَا زَحَكْتُمْ .

ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ بِسُرْعَةٍ وَكَأَنَّهَا مَخْلُبٌ طَيْرٍ كَاسِرٍ ، وَاقْتَطَعَ بِهَا قِطْعَةً كَبِيرَةً مِنَ الطَّبَقِ ، فَخَرَجَتْ مِنْهُ وَكَأَنَّهَا خُفٌّ جِلٍّ ، ثُمَّ كَوَّرَهَا بِيَدِهِ ، وَقَذَفَ بِهَا فِي فَمِهِ ، وَازْدَرَدَهَا وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّ النَّاسَ إِنَّمَا يَصْدُونَهُ عَنْ هَذِهِ الْحَلْوَى إِبْقَاءً عَلَيْهَا لَهُمْ .

— وَنَظَرَ أَحَدُهُمْ إِلَى الطَّبَقِ فَوَجَدَ قَعْرَهُ قَدْ ظَهَرَ ، مِنْ لَقْمَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَاسْتَمَازَ بِاللَّهِ ، وَقَالَ لِحِوَانِ الْكَرْدِيِّ مُسْتَنَكِرًا مُقَرَّعًا :

الْحَمْدُ لِلَّهِ يَا شَيْخَ الَّذِي لَمْ يَجْعَلْنِي طَعَامًا بَيْنَ يَدَيْكَ .

فقال الرجل الفقير ، وكان بجانبه : دعه يأكل فإنني تخيلتُ فيه وجهه المشنوق .

والتفت إلى جوان وقال له : كل ، لا هنالك الله
فدهذا يده ليأخذ اللقمة الثانية ، وما كاد يقطّعها ، حتى صاحَت
زمرد على الجند :

اثنوني بهذا الرجل : ولا تدعوه يأكل ما بيده .
فتكأثر عليه العساكر ، واقتلموه من مكانه اقتلاعاً ، وذهبوا به إليها .
فخس الحاضرون أنفاسهم ، ينظرون ما سيجرى عليه .
فسمعوا الملك يقول له :

ما اسمك ؟ وما صناعتك ؟ وما سببُ محيئك إلى مدينتنا ؟
فأجاب : يا مولانا السلطان ؛ اسمي عثمان ، وصناعتى بُستانى ،
وسببُ محيئى إلى هذه المدينة أننى أبحثُ عن شىءٍ فقد منى .
فقال الملك للجند : علىّ بتخت الرمل .

فلما أحضروه أخذتُ زمرد القلم ، وجعلتُ تخط به فوق الرمل ، ثم
رفعت رأسها إلى اللص ، وقالت له :

ويلك من خبيث كاذب ، هذا الرملُ يخبرنى أنكَ جوان الكردى ،
وصناعتك لصٌ تأخذ أموالَ الناسِ بالباطل ، وقاتلٌ تقتل النفسَ التى
حرم الله قتلها إلا بالحق .

ثم صاحَت عليه : اصدقنى الخبر ، وإلا قطعتُ رأسك .

فوجِل اللص ، واصطكَّتْ أُسنَانُهُ ، وغازَ ماءَ الحياةِ من وجهه ،
وارتجف جسمه ، ورأى ألا مناصَ له من الاعترافِ أمامَ مقدرة هذا
الملكِ العجيبة .

فقال ، وهو يظن أنه سينجو بإعترافه من بطشه :
صدقتَ أيها الملك في كلِّ ما قلت ، ولكني أتوب ، وأتوب على
يديك ، وأعودُ إلى الحقِّ منذ الآن .

فقالت زبرد :
لا يحلُّ لي أن أترك آفةً مثلك في مدينتي ، فإن وجودك فيها شرٌّ على
رعيّتي .

— وقالت لأتباعِها : خُذوه ، واسلُخوا جلده ، وافعلوا به مثلَ
ما فعلتم بالمجوسيّ في الشهر الماضي .

فلما رأى الرجل الفقير الذي كان يجاورُ اللصَّ ما حلَّ به — أدار
ظهره إطباقِ الأرز ، وهو يقول : إن استقبالكَ بوجهي حرام ، وإن
النظرَ إليك حرام .

— وعلق ثان : إن هذا الأرزَ مشئوم على كل من يأكلُ
منه ، ويدوقه .

وقال آخر : إن هذا الرجلَ يستحقُّ ما حلَّ به ، فقد نصحناه فلم
ينتصح .

ومضى الشهر ، وحل الذي يليه ، ومُدَّ السماءُ ، وآتى الناسُ على

عادتهم ، وكلُّ من دخل منهم يمدُّ طرفه يَحْتَلِسُ النظرَ إلى طبقِ الأرز ،
ويَتَّخِذُ مجلسَه بعيداً عنه .

ونظرتُ زمرْدُ فوجدتُ مكان طبقِ الأرز خالياً يتسعُ لنحو أربعةِ
أشخاصٍ ، فتبسَّمتُ لخشية القومِ من هذا المكان ، وبعدهم عنه لتوقعهم
الشرَّ منه ؛ وبينما هي تجولُ بنظرها هنا وهناك . أبصرت شخصاً يدخل
مُسرعاً من بابِ الميدانِ ، فتأملتُه ، فعرفت فيه عدوَّها المجوسِيَّ المسمى
نفسَه برشيد الدين ؛ ولما وصلَ إلى السباط ، ولم يَحْذُ به مكاناً خالياً غير
المكانِ الذي فيه طبقُ الأرز جلسَ فيه .

فقالَت زمرْد لنفسها : ما أُبْرَكَ هذا الطعامَ الذي دَفَعَ في حبالِه هؤلاء
الفاسقُون الكفرة .

— ولم يكد الرجلُ يمدُّ يده لِيَأْكُلَ من الأرز حتى صاحَتُ على الجند :
اثنوني بهذا الرجلِ .

فذهبوا إليه وأتوا به .

فسألته سؤالها :

ما اسمُك ؟ وما صناعتُك ؟ وما سببُ مجيئِكَ إلى مدينتنا ؟

فأجاب : يا ملكَ الزمانِ اسمي رُستم ، ولاصنعةَ لي ، لأنِّي درويشٌ فقير .
فقالَت لرجالها : أحضروا تحتَ الرملِ .

فلما جاءوها به ، وخطَّتْ به بعضَ الرسومِ — نظرتُ إلى الرجلِ
نظرةً يتطايَرُ منها الشررُ ، وقالت له غاضبةً :

عليك اللعنة ، كيف تجسرُ علىَّ وتكذبُ !! إنك تسمي نفسك
رشيده الدين ، وتدعى الإسلام ، وأنت مجوسي ، تنصبُ الحيل لجواري
المسامين ، وتأخذهن بغير حق ؛ فانطق بالحق ، وقل الصدق ، قبل أن
تذهب روحك .

فتلثم لسانه وهو يقول : صدقتَ يا مَلِكَ الزمان .
فأمرتُ أن يُضربَ ألفَ سوطٍ ، ثم يسْلَخَ جِلْدُه ، ويحرقَ جسده .
فسحبه الجنودُ على وجهه ، وهو يصيح ، ويصرخ ، ويلعنُ الساعةَ التي
وطئتُ قدمه فيها أرض هذه المدينة ، ويسبُ اللحظة التي خرج فيها من
بلده . والسبب الذي جعله يسبحُ في الأرض حتى انتهى به المطافُ إلى
تلك المدينة الظالم ملكها في رأيه . — هو أنه لما عادَ من سفره الذي
ترك فيه زمرد موثقةً بقصره . أخبره أهله أن زمرد قد فقدتْ ، ومعها
كيسٌ من المال ؛ فغضبَ غضباً شديداً وكاد يفقد عقله ، وأرسل أخاه
برسوم يبحث عنها ، ولما استبطأه ، وخفي عليه خبره — خرج هو
يبحثُ عنه وعنّها ، فرمته المقاديرُ إلى مدينةِ زمرد ، فكان ما حدث له ،
وذهبَ غيرَ مأسوفٍ عليه .

ولما خلت زمردُ إلى نفسها أرسلت الدعَ يجري على خديها ، وهي
تذْكُرُ ما مرَّ عليها ، وما قاسته ، بسببِ تمنّتِ هؤلاء الذين أمرتُ
بقتلهم ، ولكنها حمدتُ ربّها ، وشكرته على أنه مكّنها منهم ، وشفّت
نفسها بقتلهم ، وابتهلتُ إليه أن يؤمنَّ عليها ، فيجمعها بجيبها وسيدّها

علىَّ شار ، لتعود إليها السَّعادةُ ، وتتم فرحتُها ، ويستريح قلبُها ،
وتَهْدأ نفسها

ومرَّ عليها شهرٌ آخر تحكَّم فيه بينَ الناسِ نهارًا ، وتتهجَّدُ ليلًا ،
وتدعو الله أن يفرِّجَ كربَها ، ويردَّ قلبَها ، فيجمعَ شملَها بعليَّ شار .
وأجابَ الله دعاءَها ، وحَقَّقَ أَمَلُها : فما انقضى الشهرُ ، وحلَّ ميعادُ
السماط ، حتى أمرتُ بمَدَّة ، وتقاطَرَ الناسُ عليه وجلسَتْ هي في صدرِ
المكان ترُقُبُ الباب ، وتترقَّبُ دخولَ الشخصِ الَّذِي تَنْتَظِرُهُ ، ولا
تَغيبُ صورَتَهُ عن مُخَيَّلَتِها ، ولا تَنَمَحِي ذِكْرَاهُ من ذَهْنِها ، فلمَلَّ الله
الَّذِي مَكَّنَها من أعدائِها جميعًا ، يَمُنُّ عليها بأن يسوقَ سيدها أيضًا ،
وكانَ أَمَلُها قويًّا ، فأخذتُ تَنْظُرُ كأنَّها على موعِدٍ معه حانَ ميعادُهُ ،
وَقَرُبَتْ ساعَتُهُ ، أو كأنَّ قلبَها قد أَلْهِمَ بأن الله قد استجابَ لدعائها ،
وحَقَّقَ رَجاءَها .

ونجاةً ظَهَرَ بالبابِ شخصٌ يتقدَّمُ ، وتأملتُهُ فإذا هُوَ شابٌ طویلُ
القامةٍ ، نحيلُ الجسمِ ، وسیمُ الوجه ، أَصْفَرُ اللون ، يَلُوحُ عليه الإبلالُ
حديثًا من مرضٍ طویل . فلما تقدَّم من السَّماط ولم يجد مكانًا غيرَ المكانِ
الَّذي أَمَامَ طبقِ الأرزِ المشوَّم ، جلسَ فيه ، وهمَّ بالأكلِ .

جَزَعَ الحاضرونَ لأنهم رأوا ما لم يَرَوْهُ فيمن سَبَقوه ، وأَحْسُوا
في قلوبِهِم حنانًا نحوه ، وعَظفًا عليه ، فمزَّ عليهم أن يكون ضحية
طبقِ الأرزِ .

فقالوا له : أيها الشاب ، إنك لا تستحق الموت ، فلا تأكل من هذا الطبق . فإنه وبال على كل من أكل منه .

فهز الشاب رأسه غير مبالي . وقال : دعوني آكل منه ، فلست آبها بما يحدث لي ، لعلى أستريح من هذه الحياة الشاقة المتعبة ، ولعل القدر ساقني إلى هذا المكان لأخرج منه بإحدى راحتين : الحياة السعيدة الكريمة ، أو الموت .

ومد يده إلى الطبق ، وشرع يأكل ، والناس ينظرون إليه مشفقين ، ثم تحولت أنظارهم نحو مكان الملك ، وكأنها تناشده ألا يصيب هذا الشاب البائس بسوء .

ولكن الملك ظل ساكناً ، ولم يصدر أمره المعروف بالقبض على آكل الأرز ، وإحضاره إليه لمناقشته ، بل ظل ساكناً حتى انتهى من طعامه .

كانت زمرد تجلس ساكنة في الظاهر ، ولكنها تضطرم اضطراماً في الباطن ، يخفق قلبها ، ويعتلج فؤادها ، وتود أن تهب صارخة صائحة . إلى يا على شار ، ها نذا زمرد جالسة في انتظارك .

ولكنها كانت تماسك ، وتتجلد ، وتثبت نفسها تثبيتاً فوق مقعدها : خوفاً من أن تبدو منها بادرة تدل على ما خفي من حالها ، وتفضح أمرها أمام الناس .

كان الشخص الذي دخل إلى الديوان ، وتركته زمرد يأكل من طبق

الأرز ، هو على شارب الذي انتظرتة طويلا ، ثم أتى أخيراً بعد طول
الانتظار : نحيفاً ، نحيلاً ، مصفراً ، بألساً ، يَبْدُو عليه السقم ، وتباريح
المرض .

كان قد أبلَّ حديثاً من مرض طويل دهمه عقب ضياع زمرد ثانية
من بين يديه ، بسبب غفوته ، وغفلته ، وكاد الحزن يقتله ، وتأنيب
الضمير يصرعه ، لما استيقظ من نومه على مصطبة قصر المجوسى ، فوجد
رأسه عارياً ، وعمامته مسروقة ، وميعاد زمرد الذى حددته معها العجوز
قد مرّ ، ومضى عليه وقت طويل . أسرع إلى العجوز يخبرها بما حدث
منه وله ، وقصّ عليها قصة مصيبتة .

واستمعت له العجوز أسفةً له ، حاتقةً عليه . ثم قالت له غاضبة :

إن مصيبتك وداهيتك من نفسك ، فقل ما ينزل عليك ،
وتحمل ما يحل بك ، فما رأيت رجلاً فيه بلاهتك وتغفيلك ! لا تسمع
نصيحة ، ولا تعمل بوصية ! وما زالت تلومهم ، وتعنفهم ، وتقرعهم ، وهو
جالس يتململ ، وينظر إليها بنظرات كسيرة ، فآخرة حزينة ،
ولا يستطيع أن يردّ عليها ؛ فكان كلما قست عليه فى الكلام ، استعرض
ماضيه فى خياله استعراضاً سريعاً ؛ فيرى أنه لم يسمع نصيحة أبيه ، فأضاع
ماله ، وفقد تجارتَه ؛ ويرى أنه لم يسمع نصيحة زمرد ، وباع الستر لغير
تاجر ، ففقد زمرد ؛ ويرى أنه لم يسمع نصيحة العجوز ، ونام على
المصطبة ففقد زمرد ثانية ، وفقد عمامته .

وفي أثناء استعراض ذلك الماضي ، كانت العجوز تقرضه بكلامها
اللاذع المرّ ، نخاتته أعصابه ، وفقد وعيه ، وتمدد على الأرض
مَغشياً عليه .

فلما أفاق ، وجد العجوزَ على رأسه ، تسعفه ، وتعملُ على تنبيهه ،
وتُضمخ رأسه بالطيب ، وترش على وجهه ماءً بارداً ؛ وهي تبكي ، وتكادُ
تخنقُها العبرات ، لأنها هي التي أساءت إلى الفتى بقارص العتاب ،
ولاذع الكلام .

فلما رآته قد استردّ وعيه . قالت له :

يا عليّ . امكث حيث أنت ، حتى أذهب ، وأكشف لكَ الخبر ،
وأعودَ إليك سريماً .

— فقال : سمعاً وطاعة ، افعلِ ما ترين .

وذهبت العجوزُ ، وغابت حتى منتصفِ النهار ، ثم عادت تَجراً ذِيالَ
الفشل ، وخيبة الأمل ، وجلستُ بجانب عليّ تتحسّرُ في نفسها على شبابه
الذي سيَذوى ويذُبُل .

ولما سألتها عليّ ، وألّفت في السؤال قالت :

يا عليّ تقوّ ، وتجلّدْ على فراق جاريّتك ؛ فإن لقاءها قد أصبح عليكَ عسيراً ،
ورؤيتها صارتْ منك بعيدة ؛ ويخيلُ إليّ أنك لن تلقاها بعدَ ذلك أبداً
فإني لما ذهبتُ إلى القصر الذي كانتْ به : وجدت الوالي واقفاً على

بابه هو ورجاله ، ووجدت جمعاً كبيراً من الناس مجتمعين ، فلما سألتُ
عن السببِ ، قيلَ لي :

إن أهل القصر أصبحوا فوجدوا إحدى النواقد مخلوعة ، وجارية
تُدعى زمرد مفقودة ، ومعها كيسٌ مملوء بالمال .

فلما سمع على كلامها تبدل الضياء في وجهه ظلاماً ، ويش من الحياة ،
وتمنى أن يعجل به الموت . فيستريح . وما زال يتأوه ، ويتألم ، ويئن ،
ويزفر — حتى اضطربت أعصابه ، وبدأ يهذى هذيان المحموم ، ويتكلم
كلاماً غير مفهوم ، ولا معقول ؛ وظل كذلك حتى عاودته الغشية ، فطار
صوابه ، وفقد وعيه ، فارتبكتِ العجوز لتكرر هذا عليه ، ولكنها
أخذتْ تسعفه حتى أفاق ، ولكنه وقع فريسة للمرض والهذيان .

فلم تتركه المرأة بل ظلت تخدمه ، وتمرضه ، وتجلب له أطباء الجسم
وأطباء الروح ، وتحضر له ما يصفونه له من دواء ، وتعدُّ له الشراب ،
وتطهى له المساليق مدة عامٍ كامل .

فلما انتعشتْ نفسه قليلاً ، قالت له :

يا ولدى ، أترك الحزنَ ، ودع عنكَ الاكتئابَ ، فإنه لن يردَّ عليك
جارتك ، بل انهضْ ، وتقوّ . واشدّدْ عزمك وأحْيِ أملك ، وابحثْ
عنها ، واستقصِ خبرها ، لعلك تعثر عليها .

وما زالت تنشطه ، وتبعث الأمل في نفسه ، حتى أطاعها ، وتقبل
نصيحتها ، ونهضَ معها فأدخلته الحمام حيث اغتسل ، فرجع إليه بعضُ

النشاط، وأزيمح عنه اليأس، وعاوده حُبُّ الحياة، والرغبةُ في المجاهدة في سبيل الحُصُول على زمرّد .

وأخذ يُعِدُّ نفسه ، ويجهز حاجته للسعي في هذا ، وجارَتْهُ العجوز تساعدُه ، وتؤيِّده وتدفعُه إلى ذلك دفعاً ، وتدعو له بالتّوفيق .

وارتحلَ على شارب ، وتنقل بين المُدن والبلاد يستقصي أنباء زمرّد ، ويستنشق أخبارَها ، وظلَّ يطوفُ هنا وهناك حتى نالَ منه التعبُ منالاً عظيماً ، وأصبح غير قادرٍ على مواصلة رحلته ، وتملكهُ اليأسُ من جديد ، وأظلمت في عينيه الدنيا ، وتشوشت أفكارُه ، واكتنفته الهواجس .

ودخل مدينة زمرّد كما دخل مدناً من قبلها ، وهو مخطم النفس ، كسير القلب ، وزادَهُ بُؤساً وُغُبوساً أنه رأى هذه المدينة خالية إلا من نساءها وأطفالِها ، ووجد دكاكينها جميعاً مُغلقةً ، ولكن بعضَ الغلمان أسرعوا إليه ، وأخبروه خبر الوليمة السلطانية ، وكان قد أمضاه الجوعُ ، فأسرع إليها ، ودخل إلى السباط .

ورأتَهُ زمرّد ، فعرفته من أول وهلة ، وودت لو صاحت عليه ، ونادته إليها ، ولكنها فطنتُ إلى أنه لا بد جائع ، فتركته يأكلُ حتى اكتفى ، ثم أرسلتُ إليه غلامين قائلة لهما :

اطلبا من هذا الشاب برفق أن يحضر إليّ ، وقولا له : إن الملك يريدك ، وإياكما أن تُرْعِجَاه . فقالا :
سمماً وطاعة .

وذهبا إليه ؛ فبلغاه الرسالة ، فضى مَعَهُمَا إلى الملك ، والناسُ بعضهم يتحسر عليه . ويقولون : لا حول ولا قوة إلا بالله ! أيا ترى ! ما الذى يَنوِي الملك أن يفعله بهذا الشاب اللطيف ؟ !

ويقول بعض آخر : إن الملكَ لن يفعلَ معه إلا خيراً ؛ لأنه لو أراد ضرره ما تركه يأكل حتى يشبع ؛ فإن الذين سبقوه كانوا إذا مدوا أيديهم إلى الطبقِ لا يُمهلهم حتى يأكلوا منه ، ولذلك كان الواحد منهم بمجرد مَدِّ يده يسارع إلى إرسال من ينهره ، ويزجره ، ويحمّله إليه حملاً عنيفاً قاسياً ، وإن نظرات الملك يشع منها الرضى والسرور ، وإن الابتسامة لا تفارقه منذ وقع نظره على هذا الشاب .

ولما مثل على أمامَ زمرّد ، قَبَّلَ الأرض بين يديها ، وهو لا يعرف من أمرها شيئاً ، فقابلته بالبشاشة واللطف ، وسأله سؤالها المعروف :

ما اسمك ؟ وما صناعتك ؟ وما سبب مجيئك إلى مدينتنا ؟

أجاب على : يا ملك الزمان . اسمى علىّ شار ، وأنا من أولاد التجار ، وبلدى خراسان ، وسبب مجيئى إلى هذه المدينة هو أنى أبحثُ عن جارية عزيزة علىّ ، فقَدْتُ منى ، وزحمت صدره أنه حارة ، ولكنه لا يستطيع أن يتأوه ، أو يئن ، وحاول أن يكتمَ أثته ، ويكظمَ آهته ، فاحتقن وجهه ، وغلا دمه فى رأسه ، وطفرت دمة واحدة خففت من وجده بعض الشئ ، ثم حاول أن يحبسَ دموعه بعُدها فلم يستطع حبسها ، أو منعها ، فسالت على خده ، وهو يرتعد خوفاً .

فأمرت زمرد أن يلاطفوه ، ويداعبوه ، ويخففوا عنه ما به ، وأن يسقوه
من ماء الورد ، وأن ينضجوا وجهه به .

ثم قالت : أحضروا تخت الرمل .

وبعد أن تأملت فيه وقتاً ، وملأت عينها منه ، وارتاحت نفسها ،
وبرد قلبها خطت في الرمل على عادتها ، ثم قالت له :

صدقت في كلامك ، وسيجتمعُ شملك قريباً بمن تحب إن شاء الله ، فلا
تقلق . وأمرت الحاجب أن يمضي به إلى الحمام ، ويلبسه ثياباً حسنة من
ثياب الملوك ، ويركبه فرساً من خواص خيل الملك ، ويحضره إلى القصر
في نهاية النهار .

فقال الحاجب : سمعاً وطاعة . وأخذ علياً ، وتوجه به بين سرور
الناس بحسن مَصيره ، وتعجبهم مما فعله معه الملك .

ولما أمسى المساء ، وصعدت زمرد إلى مُعزلها — أرسلت في طلب
عليّ شار ، ودعته إليها .

فتعجب أهل القصر من معاملة الملك لهذا الشاب . وعلق كل واحد
على هذا الأمر . فمن قائل :

ما بال السلطان قد لطف هذا الفتى كل هذه الملاطفة؟! !

ومن قائل :

إن الملك قد تعلق بهذا الشاب ، وفي غدٍ سيجمعه قائد عسكره .

ومن قائل :

ليس في ذلك موضعٌ عجب ؛ فإن الفتى صدق الملك حين وجه إليه أسئلته ، ولم يَلْنُو في إجابته ، ولم يُخَفْ شيئاً ؛ ففدّر له الملك صدقه وصرّاحته ، ولو أن الذين سألهم الملك من قبله صدّقوا فيما قالوا لما أصابهم ما أصابهم .
ومن قائل :

إنه على أيّ حالٍ شابٌ لطيفٌ المعشر ، عذبٌ الحديث ، خفيفُ الروح ، بارعُ الجمال .

وأرادت زمرد أن تداعبَ عليّاً بعد أن مثّل بين يديها ، وقابلها مقابلة الملوّك وقبل أن تكشفَ له عن حقيقة أمرها حتى لا يُفاجأُ بأمرٍ عظيم فلا يتحمل المفاجأة .

فقالت له : يا عليّ . هل دخلت الحمام .

أجاب : نعم يا مولاي .

قالت : وكيف وجدته ؟

فاحمر وجه الفتى خجلاً ، ولم يُجر جواباً . فضحكت زمرد ، وأشارت له إلى مائدة عامرة بمختلف الأطعمة . وقالت له :

يا عليّ : دونك هذا الطعام فكل حتى الشبع ، ودونك هذا الشراب فاشرب حتى تروى ، وبعد ذلك احضر عندي ، وأنا جالسٌ في هذه الغرفة القريبة حتى تنتهي من طعامك وشرابك .

ف فعل ما أمرته به ، وذهب إليها . فنادته باسمه ، وقالت له :

يا عليّ : أما تعرفني ؟ ! ما أسرع ما نسيتني !! وما أعجب أن تنحوك ذاكرتك فلا تعرف ألصق الناس بك ، وأشدّهم رباطاً بحياتك ! !

فرفع نظره إليها وقال : ومن أنت أيها الملك ؟ أنا لا أعرف
عنك إلا أنك ملك هذه المدينة .

أجابت أنا جاريتك زمرد .

لم تقو أعصاب الفتى الخائرة على تحمل هذه المفاجأة فسقط مغشيًا عليه ،
فتولت زمرد إسعافه ، وعيناها لا تكف عن ذرف الدموع حتى أفاق .
وكان اللقاء بينهما لقاء ما أحره من لقاء ؛ تشاكيا ؛ وتباكيا ؛ وتعاتبا ؛
ولكن حلاوة اجتماعهما أنستهما سريعاً جميع ما مرَّ عليهما من محن ،
وما أصابهما من بلاء .

وفي الصباح . دعت زمرد رؤساء العسكر ، وأرباب الدولة ،
وقالت لهم :

إنى قد عرفت من هذا الرجل أحاديثَ عجيبة عن بلده ، وذكر لى
أمرًا لا بد أن أقف عليها وأعرفها ، فإنها إن صحت تنفعُ مدينتنا ،
فنستطيع أن نجلب لكم عددًا من عمال هذا البلد وصناعه لأنهم مهروا
فى صنع أشياء كثيرة ، وأجادوها ؛ فدرتْ عليهم مالا كثيرًا ، وعادت
على وطنهم بالخير والبركات . وقد باننى منه أن كثيرًا من أهل بلده
يحبون أن يرحلوا منه إلى أى بلد آخر ماداموا يجدون رزقًا أوسع ،
ومالا أوفر . وأخبرنى أن ملكهم لا يمنع أن يخرج هؤلاء العمال
والصناع إلى بلد غير بلدهم ؛ لينشروا علمهم وقنهم ، وخاصة إذا كان
ذلك الخروج إلى قريب من بلدهم ؛ فإن ذلك يقوى أواصر الصداقة بينه

وِينَهُمْ ، وَأَنَا سَأُخْرِجُ بِنَفْسِي إِلَى أَخِي مَلِكَ هَذَا الْبَلَدِ لِأَزُورَهُ ، وَأَعْرِضُ عَلَيْهِ أَنْ يُوَفِّدَ مَعِيَ بَعْضَ رِجَالِهِ ، وَسَأُفِيمُ عَلَيْكُمْ مَلِكًا نَائِبًا يَتَوَلَّى أُمُورَكُمْ ، وَيُرْعَى شَتَاؤُنْكُمْ حَتَّى أَعُودَ إِلَيْكُمْ .

فَأَجَابُوا زَمْرَدَ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ .

وَسَرَّعَانَ مَا تَأَهَّبَتْ زَمْرَدُ لِلسَّفَرِ هِيَ وَعَلَى شَارٍ . ثُمَّ غَادَرَا الْمَدِينَةَ يَشِيعُهُمَا أَهْلُهَا بِصَالِحِ الدَّعَوَاتِ ، وَيَتَمَنُّونَ لِهَمَا جَمِيلَ الْأَمَانِي ، وَيَسْأَلُونَ اللَّهَ أَنْ يُوفِّقَهُمَا أَكْرَمَ تَوْفِيقٍ فِي السَّفَرِ وَالْإِيَابِ .

وَوَصَلَا أَخِيرًا إِلَى بِلَادِهِمَا بَعْدَ طَوِيلِ غِيَابٍ ، وَنَزَلَا فِي مَزَلُهُمَا ، وَقَابَلْتُهُمَا جَارَتُهُمَا الْعَجُوزُ بِالْفَرَحِ وَالسَّرُورِ وَالتَّرْحَابِ .
وَوَظَلَّتْ تَحِبُّوهُمَا بِعُطْفِ الْأُمِّ وَحَنَانِهَا ، كَمَا حَظِيَ أَوْلَادُهَا بَعْدَ ذَلِكَ بِكُلِّ عَنَاءٍ وَرِعَايَةٍ

أَمَّا أَهْلُ الْمَدِينَةِ الْآخَرَى فَقَدْ ظَلَمُوا زَمْرَدًا طَوِيلًا يَنْتَظِرُونَ عَوْدَةَ مَلِكِهِمْ الْمَصْلُوحِ الْعَادِلِ ، وَيَتَمَنُّونَ أَوْبَتَهُ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَعُدْ ، وَظَلَمُوا يَتَسَاءَلُونَ ، وَيَتَكَهَّنُونَ عَنْ سِرِّهِ الْعَامِضِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَصِلَ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَى الْمَعْرِفَةِ .
وَهَكَذَا بَاعَتْ زَمْرَدُ سُلْطَانَهَا وَمُلْكَهَا ، وَاشْتَرَتْ قَلْبَهَا ، فَإِنَّ الْقَلْبَ أَبْقَى وَأَسْعَدَ وَالْعَيْشَ فِي ظِلِّهِ أَهْنَأُ وَأَرْغَدُ .



التفاحات الثلاث

رغب هارون الرشيد أن يتجول ذات يوم في دُرُوبِ بَغدَادَ
ومسالكها، ويَعُسَّ في أَحْيَائِهَا ، لِيَقِفَ على أحوال رَعِيَّتِهِ ؛ فَلَمَّاهُ
يَجِدُ ملهوفًا يُغِيثُهُ ، أو مكروبًا يَفْرِجُ كُرْبَتَهُ وَيُؤْوِيهِ ، أو فقيرًا يُعْطِيهِ ،
أو لعلَّه يجد عِوَجًا يُقِيمُهُ ، أو صدعًا يَرَأِيهِ ؛ وَيَتَعَهَّدُ مَنَابِتَ الْخَيْرِ
لِيَغْذُوهَا بِعَوْنِهِ ، وَيَرْفِدَهَا بِعَنَائِتِهِ واهتمامِهِ .

خَرَجَ الْخَلِيفَةُ ، وَجَعْفَرُ وَزِيرُهُ ، وَمَسْرُورُ سَيَّافِهِ ، وَأَخَذُوا
سَبِيلَهُمْ فِي أَمْحَاءِ بَغدَادَ ، حَتَّى كَانُوا فِي حَارَةٍ ضَيِّقَةٍ ، فَلَقِيَهُمْ شَيْخٌ مُعَمَّرٌ ،
نَالَتْ مِنْهُ السَّنُونُ ، فَايْبَضَّ شَعْرُهُ ، وَاعْوَجَّ عُنُودُهُ ، وَتَغَضَّنَ جِلْدُهُ ،
وَارْتَعَدَتْ أَعْصَابُهُ ، وَضَعُفَ بَصَرُهُ ، وَبَقِيَ فِيهِ مِنَ الْقُوَّةِ ، الْقَدْرُ الَّذِي
يُمْسِكُنُهُ مِنَ السَّمِيِّ لِلْحَصُولِ عَلَى الْكَفَافِ مِنْ قُوَّتِهِ ، وَقُوَّتِ عِيَالِهِ ،

وكان يحملُ على كتِفِهِ سُبُكَّتَهُ ، وعلى رَأْسِهِ قَفَّتَهُ ، ويسيرُ الهَوَيْتِي مُتَحَامِلًا على عُكَّازَتِهِ ، ويردُّ هذا القولُ في عجبٍ وحُسرةٍ .

يقولون : إِنْ علمَكَ غَزِيرٌ ، يَشِيعُ من حنايا صَدْرِكَ ، فَتُشْرِقِ الأَرْضُ بِنُورِهِ ، ويَجِدُ النَّاسُ فِيهِ الشِّعَاعَ الهَادِيَ لِكُلِّ ضَالٍّ ، والنداءُ المَوْظِي لِكُلِّ غَافِلٍ ، وَلَكِنْ : مَا فَائِدَةُ الْعِلْمِ لِصَاحِبِهِ ؟ ! وهل يَجِدُ فِيهِ رِزْقَهُ ؟ !

إِنِّي لَوْ بَعْتُ مَا لَدَيَّ مِنْ عِلْمٍ بِقُوَّةِ لَيْلَةٍ ، مَا وَجَدْتُ مِنْ يَنْقُذُنِي ثَمَنَهُ ، وَلَوْ رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْهُ رِزْقٌ يَوْمَ كَانَ ذَلِكَ مِنْ خَدَاعِ النَّفْسِ بِالْمَحَالِ ، وَتَعْلِيلِهَا بِالْبَاطِلِ ، وَلَكِنَّ الْعَاقِبَةَ مَنَبَتُ الرِّزْقِ ، وَمَطْلَعُ الْخَيْرِ ، وَيَنْبُوعُ الْمَالِ ، وَقَدْ أَلَحَّ الْفَقْرُ عَلَى الضَّعَفَاءِ ، فَقَطَعَ أَنْفَاسَهُمْ ، وَكَادَ يَزْهِقُ أَرْوَاحَهُمْ ، وَجَعَلَهُمْ فِي مَعَزِلٍ عَنِ الْحَيَاةِ ، فَبَرِمَ بِهِمُ الْأَغْنِيَاءُ ، وَنَقَرَ مِنْهُمْ الْأَحْيَاءُ ، حَتَّى الْكِلَابُ تَرَاهَا لَا تَبِيعُ إِلَّا الْفُقَرَاءَ ، لِأَنَّهَا نَرَاهُمْ يُشَارِكُونَهَا فِيمَا يُبْلَقُ إِلَيْهَا مِنْ فُتَاتٍ وَعِظَامٍ ، فَأَصْبَحُوا وَلَا مَكَانَ لَهُمْ إِلَّا قَبْرٌ يُؤْوِيهِمْ ، وَيُسَبِّلُ السَّتَارَ عَلَيْهِمْ ! !

فَقَالَ هَارُونُ الْجَعْفَرِ :

لَعَلَّ هَذَا السَّيِّخُ فِي مَسِيرِ الْحَاجَةِ إِلَى مَعُونَةٍ ؟ فَتَبَيَّنَ حَالَهُ .

فَأَقْبَلَ جَعْفَرٌ وَسَأَلَهُ :

مَا عَمَلُكَ أَيُّهَا السَّيِّخُ ؟

فَقَالَ : تَقَرَّؤُهُ فِي شَكْلِي ، وَلَكِنَّ الْأَنْظَارَ تَنْبِئُ عَنِ الْفُقَرَاءِ ! عَمَلِي



صَيَّادٌ ، وأسرتى كثيرةُ الأفراد ، وأنا عِمَادُهَا ، وعلى يدي رزقُها ، وقد ذهبتُ إلى النهرِ من طلوعِ الفجرِ ، وأخذتُ أترددُ على شاطئه ، وأطرحُ شبكتي في الماء ، ثم أجذبُها ، وأمنّي نفسي كلما أوْشَكَتُ أن تياسَ ، ولكنْ لم أرْزَقْ سمكةً واحدةً حتى الآن — وكان الوقتُ وقتَ الأصيل — فبرمتُ بالحياة ، وأحببتُ الموتَ ، حتى لا أرى عيالي يَعْضُّهم الجوعُ ، ولا أستطيعُ أن أطعمهم ، أو أشغلهم عن جوعهم .

فقال الخليفةُ : ألا تُحبُّ أن ترجعَ بنا إلى النهرِ لقاءَ ثلاثمائةِ قطعةٍ من الذهبِ ، على أن يكونَ لنا ما تُخرجهُ شبكتك ، مهما يكنَ من أمره .
ففرح الصيادُ ، ورجا أن تكونَ الأيامُ قد أشرقتْ بنورها في وجهه ، وانتعشَ عاثرُ جدِّه ، وفكَّ أغلالَ قدميه بارقُ أملِه ، واستنفرَ قاعدَ همتهِ إلى نهره .

وباسمِ اللهِ ألقيَ شبكته ، وأنظرَها في النهرِ قليلاً ، ثم جذبَها إليه ، ولما ثقلتُ في يده — استبشَّرَ باليمنِ والنعمةِ ، وجاهدَ في إخراجها ، حتى كانتُ على الساحلِ بين أيديهم ، وقد التقتْ صندوقاً مُقفلاً ، لا يدري أحدٌ ما في جوفه ، فنقده الخليفةُ الذهبَ الذي وعدَه ، فأخذه شاكرًا ، ودفعه الفرحُ بالذهبِ ، والرغبةُ في إطعامِ عياله — أن يعودَ سريعاً إلى منزله .

أما الصندوقُ فقد أمرَ الخليفةُ أن يُحملَ معه إلى قصره ، ففتُحَ أمامه ، وانفرجَ عن فتاةٍ قطعتْ إرباً إرباً ، تنمُّ معالمُ جمالها الباقيةُ ،

عما كانت عليه من روعة الحُسن والبهاء ، فاربَدَّ وجهُ الخليفة غَضَبًا ،
وأصبحتْ نفسه جحيا يَسْتَعِرُّ بِالغَيْظِ وَالْأَسَى ، لهذه الفتاة التي أزهقت
روحها ، وقُطِّعتْ أوصالها ، وأُلْقِيَ بها في النهر ، في غفلةٍ من الرُقَبَاءِ ،
وإهمالٍ من الأعوانِ ، أَلْهَبَ سُعَارَ المجرمين الأشقياء .

ذَكَرَ أَنَّ عَلَيْهِ واجبًا ، وَأَنَّ اطمئنانَ الناسِ ، وشُيُوعَ الأمنِ بينهم أولُ
ما يجبُ أن يُغْنَى به الحاكمُ ، وتَمَثَّلَتْ أَمَامَهُ مسئوليتُهُ ، ففَارَ فَوْرَةً
الجبَّارينَ ، وأقسمَ لِيَقْتُلَنَّ جعفرًا وأَهْلَهُ ، وَلِيَصْلِبَنَّهُمْ فِي خُشْبٍ مَنصُوبَةٍ
فِي السَّاحَةِ العامَةِ إمامَ قصرِهِ ، إن لم يُحْضِرْ قَاتِلَهَا . وَأَمَلَهُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ،
تَنْتَهِي بِاحْضَارِهِ الْقَاتِلَ أَوْ صَلْبِهِ وَأَهْلِهِ .

— فابْتَأَسَ جعفرُ واستكَّانَ ، لِأَن الْأَمْرَ مُغْلَقٌ فِي وَجْهِهِ ، لَا يَجِدُ
لَهُ بَابًا يَلْجِئُهُ ، وَلَا مَنَقْذًا يَسْأَلُكَه — حَتَّى يَكْشِفَ اللَّثَامَ عَنْ وَجْهِ الْحَادِثَةِ
وَيَنْشِقَّ عَنْ نُورِ الْحَقِيقَةِ ، وَأَيُّقِنَ أَنَّهُ مَهْمَا يَكُنْ بِحُجَّتِهِ ، فَلَنْ يَكُونَ
مَصِيرُهُ إِلَّا مَصِيرَ الْفَقَائِعِ الْغَازِيَةِ عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ الْآسَنِ ، فَذَهَبَ إِلَى
مَنْزِلِهِ مَكْتَتِبًا مُشَرَّدَ اللَّبِّ ، لَا يَدْرِي مَا يَفْعَلُ ، وَيَقُولُ فِي نَفْسِهِ :

كَيْفَ أَكَلَّفُ الْبَحْثَ عَنْ قَاتِلٍ فِي حَادِثَةٍ بَلَغَتْ مِنَ الْخَفَاءِ مَبْلَغًا
تَضِلُّ فِي زَوَايَاهُ الْفِطْنُ ، وَيَضِيعُ السَّمْعُ فِي نَوَاحِيهِ ضَيَاعَ الْعَجْزِ .

وَمَنْ لِي بَغِيبِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ أَحَدٌ .

وَكَيْفَ تُطَوِّعُ لِي نَفْسِي الْمُؤْمِنَةَ أَنْ أَجْتَرِحَ إِثْمًا أَوْ خَطِيئَةً ، فَأَنْسُبَ
إِلَى إِنْسَانٍ بَرٍّ تِلْكَ الْجَرِيعَةَ . فَأَكُونَ قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا بَغِيرَ نَفْسِي لِأَفِرَّ

بنفسى من جَوْرٍ صارخٍ ؟ ! وإذا نَجَوْتُ بهذا الباطلِ فى الدنيا ، فمن يُنَجِّينى من عذابِ الله يومَ القيامةِ ؛ إذا المقتولُ سُئِلَ بأى ذنبٍ قُتِلَ ؟ ! اللهم لا رادَّ لقضائِكَ ، ولا مُقَبِّبَ لحُكْمِكَ فاهدِنى صِراطَكَ المستقيمَ ، ونَجِّنِى وأهلى من الظلمِ المبينِ .

وعكف ثلاثة أيام حبيساً فى داره ، حبيساً فى حيرته وحُزنه ، وفى اليومِ الرابعِ جاء رسولُ الخليفةِ فى طلبه ، فلما كانَ بين يديه سأله : أين قاتلُ الفتاة ؟

فقال : ذلك من غيبِ الله الذى لا يُطْلِعُ أحداً عليه .

فقال : ولكنَّا تولَّينا أمرَ الناسِ ؛ لنُدْفِعَ بعضهم عن بعضٍ ، وليكونَ الضعيفُ قوياً بنا حتى نأخذَ الحقَّ له ، والقوىُّ ضعيفاً عندنا حتى نأخذَ الحقَّ منه ؛ ولو خَشِيَ القاتلُ الآثمُ يقطعتك وبأسك ، ما فعلَ فَعَلَتَهُ التى نحنُ مسئولون عنها يومَ القيامةِ ؛ وإن لم تكنْ قَتَلْتَ الفتاةَ بيدِكَ ، فأنتَ شريكُ القاتِلِ بإهمالك .

فقال جعفرٌ : إنما الحكمُ لله وهو ولى الصابرين .

وأمر الخليفةُ أن يُؤذَّنَ فى الناسِ بالحُضُورِ إلى الساحةِ العامةِ ، ايشهدوا مَصْرَعَ الوزيرِ وأهله ، وليكونَ ذلكَ نذيراً للوُلاةِ من بعده ، ومُرْدَجَرًا يَرُدُّعُهُمْ ، ويُصْلِحُ ما يفسدُ من أمرِهِمْ .

وسيقَ الوزيرُ وأهله فى اليومِ الموعدِ ، إلى الساحةِ العامةِ لقتلِهِمْ وصلبِهِمْ ، وحضرَ الناسُ من كلِّ فجٍّ ، فغصَّتْ الساحةُ بأناسٍ شاخصةٍ

أَبْصَارُهُمْ ، مُصَفَّرَةً أَلْوَانُهُمْ ، وَاجَةً نَفُوسُهُمْ ؛ إِذْ لَفَتَهُمْ هَذَا الْأَمْرُ ،
وَلَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَ لَهُ سَبَبًا ؛ وَوَقَفَ كُلُّ مَنْ الْوَزِيرَ وَأَهْلِهِ أَمَامَ خَشْبَتِهِ
الَّتِي أُعِدَّتْ لَصَلْبِهِ بَعْدَ قَتْلِهِ ؛ وَأُعْلِنَ الْحُكْمُ ، وَانْتَظَرَ الْجُنُودُ أَمْرَ
الْخَلِيفَةِ بِتَنْفِيزِهِ ، فِي سَكُونٍ رَهيبٍ ، وَحَيْرَةٍ حَائِرَةٍ .

وَيَمَّا هُمْ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ ، إِذْ شَقَّ الْجَمْعُ الْحَاشِدَ ، وَالسَّكُونُ الْمُخِيمُ
السَّائِدَ ، شَابُّ نَاضِرُ الْعُودِ ، نَاعِمُ الْأُمْلُودِ ، يَتَأَلَّقُ وَجْهَهُ وَضَاءَةً ،
وَيَفِيضُ نَعِيمًا ، يَشُوبُ وَجْهَهُ سَحَابَةٌ رَقِيقَةٌ مِنْ حُزْنٍ عميقٍ ، حَتَّى كَانَ
بَيْنَ يَدَيْ جَعْفَرٍ ؛ فَقَالَ :

لَا تَتْرِبَ عَلَيْكَ أَيُّهَا الْوَزِيرُ ، وَمَا كَانَ لَكَ أَنْ تُسَاقَ إِلَى الْمَوْتِ
وَيُطْفَأَ نُورُ وَجُودِكَ ، بِغَيْرِ حَقٍّ أَضَعَّتْهُ ، أَوْ إِثْمٍ اجْتَرَحْتَهُ ، وَقَدْ
حَبَسْتُ عَلَيْنَا حَيَاتَكَ ، وَرَصَدْتُ لَنَا عَدَالَتَكَ وَرَعَايَتَكَ ؛ أَنَا قَاتِلُ الْفَتَاةِ
الَّتِي وَجِدْتُ فِي الصَّنَدُوقِ ، فَاقْتُلْنِي بِهَا ؛ فَافْتَرَّ ثَغْرُ جَعْفَرٍ عَنْ ابْتِسَامَةٍ
حَائِرَةٍ ، وَفَرِحَ لِنَجَاتِهِ وَأَهْلِهِ ، وَلَكِنَّهُ تَأَلَّمَ لِهَذَا الشَّابِّ الَّذِي وَهَبَ لَهُ
طَائِعًا حَيَاتَهُ ، وَقَدَّمَ نَفْسَهُ قُرْبَانًا لِنَجَاتِهِ .

وَمَا كَادَ الشَّابُّ يَنْتَهِي مِنْ كَلَامِهِ ، حَتَّى كَانَ شَيْخٌ كَبِيرٌ يَشُقُّ
طَرِيقَهُ بَيْنَ النَّاسِ ؛ وَلَمَّا وَصَلَ إِلَى الْوَزِيرِ وَالْفَتَى ، سَلَّمَ عَلَيْهِمَا ، وَقَالَ :
لَا تُصَدِّقْ هَذَا الْفَتَى ، وَمَا كَانَ لَهُ يَدٌ فِي قَتْلِ الْفَتَاةِ ، وَلَكِنِّي أَنَا
الَّذِي قَتَلْتُهَا ، وَمِنْ الْعَدَالَةِ أَنْ يَكُونَ الْقَصَاصُ مِنِّي .

فَقَالَ الْفَتَى : لَعَلَّ كِبَرَ سِنِّيهِ ، نَالَ مِنْ عَقْلِهِ ، فَأَفْقَدَهُ رُشْدَهُ ، فَلَا تَأْتِبَهُ

لقوله ، ولا تعبأ باعترافه ، وما قتل الفتاة إلا يداى هاتان ، ومن الحق أن أحمل فصاصها ، ويُثَارَ لها منى .

فالتفت الشيخ إلى الفتى قائلاً : إنك لا تزالُ في صُبح حياتك ، لم تنعمَ بخيرها ، ولا بفسحة الأجل فيها . أما أنا فقد قَطَعْتُ يَوْمَهَا ، وَأَذَنْتُ شَمْسُ حَيَاتِي بِالْغُرُوبِ ، وَقَضَيْتُ مَآرِبِي فِيهَا ، وَنَقَضْتُ يَدَيَّ مِنْهَا ، فَأَذْبَرْتُ عَنِي ، وَأَذْبَرْتُ عَنْهَا ، وَأَقْدَمُ الْآنَ نَفْسِي فِدْيَةً لَكَ ، وَلِلْوَزِيرِ وَأَهْلِهِ . وَمَنِ الْبِرِّ أَنْ يُعْجَلُوا بِقَتْلِي دَرِيًّا لِلظُّلْمِ أَنْ يُصِيبَ غَيْرَ مَوْضِعِهِ .

فأخذهما الوزيرُ إلى الخليفة ، وقال : لقد قَدِمَ علينا قَاتِلُ الْفَتَاةِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ .

— فقال : أَحْضَرُهُ حَتَّى نَتَبَيَّنَ أَمْرَهُ قَبْلَ أَنْ نَقْتَصَّ مِنْهُ .

فقال جعفرُ : إِنَّ هَذَا الْفَتَى يُصِرُّ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْقَاتِلُ ، وَهَذَا الشَّيْخُ يَنْفِي عَنْهُ الْجُرِيْمَةَ ، وَيُنْسِبُهَا إِلَى نَفْسِهِ ، وَيُدِيحُ فِي أَنْ يُعْجَلَ بِالْقِصَاصِ مِنْهُ .

فنظر الخليفةُ إليهما قائلاً أَيُّكُمَا قَتَلَ الْفَتَاةَ ؟

فقال الفتى : لَمْ يَقْتُلْهَا أَحَدٌ غَيْرِي .

وقال الشيخ : لَقَدْ سَفَّهَ هَذَا الْفَتَى نَفْسَهُ ، وَعَقَّ شَخْصَهُ ، فَأَسْلَمَ نَفْسَهُ إِلَى مَوْتِ آثِمٍ ، وَالْحَقُّ الَّذِي لَا مَرِيَّةَ فِيهِ أَنَّ الْفَتَاةَ مَا قَتَلَهَا أَحَدٌ غَيْرِي .

فقال الخليفة : إذا كان القاتل واحداً ؛ فمن الظلم أن يُقتل آخر

برى معه

فقال الفتى : وحق من رفع السماء بغير عمد ، ما قتلها غيرى .
وأخذ يذكر للخليفة ما حواه الصندوق ، ولون الإزار الذى لف
أشلاءها ؛ فاستنفع الخليفة أنه هو القاتل . ثم سأله : وما حملك على قتلها ؟

فقال الفتى : هذه الفتاة زوجى ، وهذا الشيخ الفانى عمى ، وهى ابنته
تروجّسها بكراً ، وهب لى ربى منها ثلاثة أبناء وقد سكن كل منّا
إلى صاحبه ، وعشنا فى ظلال الأخلاص والمحبة والمودة والرحمة ، ولم أجد
فيها ريحاً من ريبة فى سلوكها ، وفى غرة هذا الشهر نقلت عليها وطأة
الحمى ، فأزمتها فراشها وجعلتها حبيسة مضجعتها ، فأحضرت إليها نطس
الأطباء ؛ رجاء أن تبرأ من علتها ، وفى أثناء ذلك تافت نفسها إلى
التفاح ، فبحثت عنه فى سوق المدينة لعل أجده تفاحة واحدة ؛ فذهب
سعى أدراج الرياح ، ولم أغثر على شىء من التفاح ، فسألت عن مكانه
الذى يتوقع وجوده فيه ، فقبل لا وجود له الآن إلا فى مدينة البصرة
فذهبت من فورى إليها ، وتحملت مشقة السفر ، وأحضرت ثلاث
تفاحات ، تقدت ثمنها ثلاثة دنانير ، ولكن زوجى زهدت فيها بعد
إحضارها لتأثرها بالحمى التى لا تزال تستبد بها ، وتقاسى من شدتها ،
ثم صرف الله عنها السوء وتماثلت للشفاء .

وبينا أنا مشغول فى دكاني مرّ على عبد أسود فارح الطول يقليب



تفاحه في يده ، فناديتُه عسى أن يدُلّني على مكانٍ قريبٍ للتفاحِ لِأُخْذَ منه
 قَدْرًا أُحْتَفِظُ به لِزَوْجَتِي إِذَا طَلَبَتْ ، وسألتهُ : من أين لك هذه التفاحه ؟
 فابتسمَ طويلًا ، ونظرَ إليها قائلاً : هذه هديّةٌ حبّيتي . كنتُ غائبًا عنها ،
 ولما جئتُ من غَيْبَتِي ذهبتُ إلى زيارتها ، فألفيتها مريضةً بالحمّى ، وعندها
 ثلاثُ تفاحاتٍ أحضرها زوجها من البصرةِ بثمنٍ مقدارهُ ثلاثةُ دنانيرٍ ،
 وقد أعطتني هذه التفاحه .

وما انتهى العبدُ من قوله وانصرف ، حتى دَهَمَنِي مِنَ النِّمِّ ما أَذْهَلَنِي
 وَأَفْقَدَنِي رُشْدِي ، ولم أدِرِ بعد ذلك ما فعلته ؛ ولكنني أذكرُ أَنِّي
 أَقْلَمْتُ الدَّكَانَ فِي التَّوِّ وَالسَّاعَةِ ، وَذهبتُ إلى بيتي ، فوجدتُ بجوارها
 تفاحتين ، فسألتهما عن الثالثة ، فقالت : لم أَطْعَمْ منها شيئًا ، ولا أدري
 أين ذهبتُ ، فوقع كلامُ العبدِ من نَفْسِي مَوْقعَ الصَّدَقِ الَّذِي لَا شَكَّ
 فِيهِ ، فَأَمْسَكْتُ سَكِينًا مُرْهَفَةً ، وَجَشْتُ عَلَى صَدْرِهَا ، وَذَبَحْتُهَا ،
 وَهِيَ مُسْتَجِيرَةٌ مُسْتَسَامَةٌ ؛ ثُمَّ قَطَعْتُهَا وَلَفَفْتُهَا فِي إِزَارِهَا ، وَوَضَعْتُهَا فِي
 سَلَةٍ ، وَأَوْدَعْتُهَا الصَّنْدُوقَ ، وَأَحْكَمْتُ إِغْلَاقَهُ ، وَأَخَذْتُهُ عَلَى بَغْلَتِي ،
 وَرَمَيْتُهُ بِيَدِي فِي نَهْرِ دَجَلَةَ — فَإِذَا أَنْصَفَتْنِي مِنْ نَفْسِي ، وَأَنْصَفَتَ
 زَوْجِي مِنِّي ، وَأَنْصَفْتَ عَمِّي مِنِّي وَمَنْ زَوْجِي ، فَعَجِّلْ بَقْلِي ، فَإِنِّي
 أَخْشَى عِقَابَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

فقال الخليفةُ : هاتِ ما عندك ، وَأَتِمِّمْ قِصَّتَكَ .

فقال : وبعد أن طَرَحْتُهَا فِي النِّهْرِ ، وَابْتَلَعَهَا الْمَاءُ رَجَعْتُ إلى بيتي ،

فوجدتُ أَكْبَرَ أَبْنَاءِ يَيْكِي ، ولم يكن يعلمُ من قتلِ أُمِّهِ شَيْئاً ؛ فسأَلته :
 ما يُيَكِيكَ ؟ فقال : لقد أَخَذْتُ تَفَاحَةً مِنَ الثَّلَاثِ اللَّائِي بِجِوَارِ أُمِّي ،
 ولما كُنْتُ بِهَا فِي الشَّارِعِ قَابَلَنِي عَبْدٌ طَوِيلُ الْقَامَةِ أَسْوَدُ الْوَلَوْنِ فَرَبَّتَ عَلَيَّ
 كَتِفِي ، وَمَسَحَ عَلَيَّ رَأْسِي ، وسأَلَنِي : من أين جِئْتَ بِهَذِهِ التَّفَاحَةِ ؟
 فقلتُ له : لقد أَحْضَرَ أَبِي ثَلَاثَ تَفَاحَاتٍ مِنَ الْبَصْرَةِ بِثَلَاثَةِ دَنَانِيرَ
 لِأُمِّي الْمَرِيضَةِ ، وَهَذِهِ وَاحِدَةٌ مِنْهَا ، فَاخْتَطَفَهَا مِنِّي ، وَفَرَّ هَارِباً ، وَإِنِّي
 أَخْشَى أَنْ تُضْرِبَنِي أُمِّي إِذَا أَخَذْتُ التَّفَاحَةَ عَلَيَّ غَيْرَ عِلْمٍ مِنْهَا .

فعلِمْتُ أَنَّ مَا قَالَهُ الْعَبْدُ كَانَ مُحْضَافَةً سَاقِي إِلَى جَرِيْمَةٍ شَنْعَاءَ ،
 وَأَنِّي ظَلَمْتُهَا بِقَتْلِهَا ، فَعَكَفْتُ فِي مَنْزِلِي مُسْتَسْلِماً إِلَى حَزَنِ عَمِيقٍ .

ولما جَاءَ عَمِّي هَذَا الشَّيْخُ لَزِيَارَتِنَا أَخْبَرْتُهُ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِي ، فَقَالَ :
 قَدْ نَفَذَ الْقَضَاءُ ، وَلَا مَعْصِمَ لَنَا إِلَّا الصَّبْرُ الْجَمِيلُ ، وَلَزِمْنِي فِي مَنْزِلِي خَمْسَةَ
 أَيَّامٍ تَتَقَاذَفُنَا الْهَمُومُ وَالْأَحْزَانُ ، وَإِنِّي أَسْتَحْلِفُكَ بِاللَّهِ أَيُّهَا الْخَلِيفَةُ ،
 وَبِشَرَفِ أَجْدَادِكَ — أَنْ تُعَجِّلَ بِالْقَصَاصِ مِنِّي ، وَالتَّأَرُّ لِهَذِهِ النَّفْسِ
 الْبَرِيئَةِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ قَتْلَهَا إِلَّا بِالْحَقِّ .

— فَهَزَّ الْخَلِيفَةُ رَأْسَهُ ، وَقَالَ ؛ لَنْ أَقْتُلَ فِيهَا إِلَّا ذَلِكَ الْعَبْدَ الْأَسْوَدَ

الْأَثِيمَ .

— ثُمَّ التَفَتَ إِلَى جَعْفَرٍ قَائِلاً : وَعَلَيْكَ بِإِحْضَارِهِ وَإِلَّا قُتِلَتْ فِيهِ .

فَخَرَجَ الْوَزِيرُ فِي حَيْرَةٍ وَفَزَعٍ وَارْتِبَاكِ ، وَفِي هَمٍّ شَدِيدٍ ، وَحَزَنٍ عَمِيقٍ ،
 وَاتَّقَلَّبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَعَثَّرُ فِي خَطَاةٍ ، وَلَا يَكَادُ يَرَى لِلدُّنْيَا وَجْهًا ، وَقَالَ فِي



نفسه : ما كُلُّ مرةٍ تَسَلَّمُ الجُرَّةَ ، ولكنى أَكَلْتُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ، فهو الذى يُدافعُ عن الذين آمنوا ، وَيَتَوَلَّى الصَّابِرِينَ . ولزم عُقْرَ داره ثلاثة أَيَّامٍ كان قد أَنَهَلَهُ الخليفةُ إِيَّاهَا ، وفى اليومِ الرَّابِعِ أَحْضَرَ القاضى لِيَكْتُبَ وصِيَّتَهُ فى حَضْرَتِهِ ، وبينما هُوَ فى إِعدادِها إِذْ حَضَرَ رَسولُ الخليفةِ لِيُطَلِّبَ وزيرَه فودَّعَ أَهْلَهُ واحداً فى إِثر واحدٍ إِلَى أَن كانت ابنتُه الصَّغِيرَةُ بين يَدَيْهِ ، وكانت أَحَبَّ أولادِهِ إِلَيْهِ ، وحينما كان يَضُمُّهَا إِلَى صَدْرِهِ أَحْسَنَ شَيْئاً مُسْتَدِيرّاً فى جَنِّهَا فساءَلَهَا عَنْهُ ، فقالتُ : تفاحةٌ أَعطانيهَا عبدُنا رَئِيحانُ ، منذُ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ ، وَأَعْطَيْتُهُ ثَمَنَها دِينَارَيْنِ ؛ فظهرَ على وَجهِ الوَزيزِ التَّغَيُّرُ المَفْاجِئُ ، وأمرَ أَن يَحْضُرَ العبدُ على عَجَلٍ بين يَدَيْهِ ، فسأَلَهُ عن التفاحةِ ، وكيف جاءَ بِها ؟ فقَصَّ عَلَيْهِ قِصَّتَها على حَقِيقَتِها ، فقامَ بِهِ جَعْفَرٌ إِلَى الخليفةِ فَرِحاً ، وقال : لَقَدْ أَغْثَرَنِي اللَّهُ على العبدِ الأَسودِ اللَّئيمِ ، الذى كان سَبباً فى قَتْلِ الفتاةِ ، وإشْقاءِ زَوْجِها وَأَبِيها ؛ وها هُوَ ذا أَقودُهُ إِلَى سَيِّدِ الخليفةِ لِيَتَلَقَّى جِزاءَ مَكْرِهِ السَّيِّئِ ، ولا يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ، وقَدَّمَ العبدُ إِلَيْهِ ؛ فاعترفَ بِكُلِّ ما جَرى مِنْهُ ، فأمرَ الخليفةُ بِإِعدامِهِ وَصَلَبِهِ فى السَّاحَةِ الكَبْرى ، على مَشْهَدٍ مِنْ رَعِيَّتِهِ ، حتى يَكُونَ فى قَتْلِهِ وَصَلَبِهِ ، عِقابٌ لَهُ ، ومَوْعِظَةٌ لغيرِهِ مِنَ الَّذِينَ يَسْتَهْينُونَ بِأَعْراضِ النَّاسِ ، وَيَفْتَرُونَ عَلَيْهِمُ الكَذِبَ ، ولا يُبَالُونَ عاقِبَةَ كَذِبِهِمْ ؛ فَيَنْجُمَ عن ذَلِكَ قَتْلُ النُّفوسِ البَرِيَّةِ ، وَهَدْمُ بِناءِ أُسْرِ كَرِيمَةٍ .



نور الدين وأخوه شمس الدين

(١)

كان في مصر ملكٌ مهيبٌ الطَّلعة ، مرَّهوبُ السلطان ، قوىُ
البأس ، عزيزُ الجانب ، شديدُ العريكة ؛ يُعِينُهُ في تصريفِ شؤنه ،
وتدبيرِ أموره — وزيرٌ حَكَمَتْهُ السَّنُون ، وأكسبه طولُ عمره بصراً
ناقدًا ، وخبرة واسعة ، ودِرَايةً صادقةً .

وكان له ولدان : أحدهما شمسُ الدين ، والآخر نُورُ الدين ، وكان
ولَدَاهُ هَذَانِ أُعْجُوبَةُ الزمان ، في حسنِ التَّقْوِيمِ ، ورائعِ الجمال ؛ وفاق
أصغرُهما نورُ الدين أخاه الأكبر في بهاءِ طَلْعِهِ ، ونَصْرَةِ وجهه ،
وإشراقِ محاسنه ، وجمالِ قِسماته ؛ فَأَحْبَبَهُ النَّاسُ أَكْثَرَ مِنْ حُبِّهِمْ لِأَخِيهِ ،
ووفدوا إليه ، وجالسوه ، والتفوا حَوْلَهُ .

ظَلَّ هذا الوزيرُ يُعاونُ الملكَ ، على خيرٍ ما تكونُ المعاونةُ ، وبُصْرَفٍ
شئونَ الدولةِ على خيرٍ ما يكونُ تصرِيفُ شئونِ الدولةِ ؛ ولكن سَنَّهُ
كانتْ قد تقدمتْ ، فدنا أجلُّه ، ولجَّى نداءُ رَبِّه ، فابْتَأَسَ السلطانُ
بفُرْقَتِه ، وحزنَ عليه حُزناً شديداً .

ورأى من الوفاءِ له أنْ يعطِفَ على وَلَدَيْهِ شمسِ الدينِ ، ونورِ الدينِ ،
وأنْ يُسِنِدَ إليهما وزارةَ أبيهما ؛ فاستدعاهما إليه ، واشتَوَزَ رَهْمَا ، فحمدَا
له عطفَه ، وأَقاما مائتَ أبيهما مدةَ شهرٍ كاملٍ .

وكانا يتناوبانِ العملَ في الوزارةِ ، أسبوعاً في إثْرِ أسبوعٍ ، ولا يسافرُ
السلطانُ إلا إذا كانَ معه واحدٌ منهما ، وكانا يتناوبانِ هذه السَّفَرَاتِ
معه . كلُّ منهما يسافرُ مرةً ، ويبقى الآخرُ يُعِدُّ الشئونَ ، حتى يعودَ
المسافرانِ .

وذاث ليلةُ أنْجى شمسُ الدينُ أن السلطانَ سَيَصْحَبُهُ بُكَرَةً غَدِه ، في
سفره إلى جهةٍ ما من جهاتِ مُلْكِه . وفي تلكَ الليلةِ جلسَ الأخوانِ
يتحدثانِ .

شمس الدينِ : أودُّ أن يكونَ زواجُنَا في ليلةٍ واحدةٍ .

نور الدينِ : نعم ما وددتَ فافعلْ ما أردتَ ، وستجدنِي إن شاء الله
طائعا ولا أعصى لك أمراً .

شمس الدينِ : هبنا تَزَوَّجْنَا في ليلةٍ واحدةٍ ، وشاءَ القَدَرُ أن وَضَعْتَ
زوجتانا في ليلةٍ واحدةٍ وقد ولدتَ زوجتَكَ غلاماً ، ووضعتَ زوجتي

أنثى ، فهل ترضى أن يكون ابنك زوجاً لابنتي ؟
 نور الدين : وكم ديناراً تريد مهراً لابنتك ؟
 شمس الدين : ثلاثة آلاف دينار ، وثلاثة بساتين ، وثلاث ضياع ،
 وبغير هذا لا ينفذ الزواج .

نور الدين : لقد أبعدت في التقدير ، ونسيت أننا أخوان ، ونعملُ
 وزيرين في منصب واحد ، وكان الأجدرُ بك وأنت الأخُ الأكبرُ ،
 والولدُ والبنتُ اللذان سننجهما وَلَدَاك — أن تُقدِّمَ ابنتك هديةً لابني ،
 الذي سيُخلِّدُ ذكرانا ، كما خلَّدنا ذكرى أينا ، ولكنك سرتَ معي
 في هذا الأمرِ حسبَ القولِ السائر : « إن أردتَ الطردَ فارقعِ
 الثمن . . . »

شمس الدين : أراك نقصتَ من حقى ، إذ فضلتَ ابنك على ابنتي ،
 وقد بدَّر منك ما يدل على أنك تجهلُ حقيقةَ نفسك ، وأنت لا تعرفُ
 قدرى ، وتحاولُ أن تحطَّ من قدرى ، وتضعَ من مقامى ، إذ تذكرُ
 الوزارة ، وأنت فيها مثلى ، وما دريت أنها معقودة لى ، وما أشركتُك
 إلا شفقةً منى ، ولأستعينَ بك بمضى العون فى بعضِ الأعمال ، وما دام
 هذا شأنك ، فلتقل ما تشاء ، ويمينا لن أزوجَ ابنك من ابنتي ، ولو
 أعطيتنى ملء الأرض ذهباً .

نور الدين : شأنك وما تريد ، فلن أرتضيها لابنى زوجةً ، ولو
 سقتَ معها وزنها ذهباً .

شمس الدين : وَمَنْ يَرْضَى ابْنَكَ بِعَلَا ؟ وَلَوْلَا أَنَّى عَلَى سَفَرٍ غَدًا
لَأَرَيْتُكَ مِنْ آيَاتِ الْعِبَرِ مَا فِيهِ لِمِثْلِكَ مُزْدَجَرٌ ، وَبَعْدَ عَوْدِي الْقَرِيبِ ،
يَفْعَلُ اللَّهُ بِكَ مَا يَرِيدُ .

— وَذَهَبَ كُلُّهُمَا إِلَى مَضْجِعِهِ مُتَّحِينَ بِهِ مِنَ الْبَيْتِ نَاحِيَةً .
وَفِي الصَّبَاحِ كَانَ شَمْسُ الدِّينِ فِي حَاشِيَةِ السُّلْطَانِ إِلَى الْجَزِيرَةِ
وَالْأَهْرَامِ .

— أَمَّا نُورُ الدِّينِ فَقَدَّ بَاتَ عَلَى أَحْرَّ مِنَ الْجَمْرِ غِيظًا وَكَدًّا ، وَلَمَّا
طَلَعَ الصَّبْحُ ، وَأَقَامَ صَلَاةَ الْفَجْرِ ذَكَرَ أَخَاهُ وَقِسْوَتَهُ ، وَتَحْقِيرَهُ مِنْ شَأْنِهِ ،
فَاسْتَوَلَتْ عَلَيْهِ وَسَاوِسُ كَثِيرَةٌ ؛ فَأَخَذَ يَدُورُ بِفِكْرِهِ هُنَا وَهَنَا ، حَتَّى
اسْتَقَرَّ رَأْيُهُ عَلَى أَنْ يَتْرُكَ هَذِهِ الْبِلَادَ ، وَيَرْحَلَ مِنْهَا إِلَى بِلَادٍ أُخْرَى
غَيْرِهَا ، وَقَدَّرَ أَنَّ فِي السَّفَرِ عَنَاءً وَمَشَقَّةً ، وَلَكِنْ مَا يُبْلَاغِيهِ مِنْ عَنَاءِ
السَّفَرِ ، وَمَا يَكَابِدُهُ مِنْ أَهْوَالِهِ وَمَشَقَّاتِهِ أَهْوَنُ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَبْقَى مَعَ أَخِيهِ
يَتَعَبُهُ وَيُذِلُّهُ ؛ وَقَدَّرَ أَنَّهُ إِذَا سَافَرَ فَإِنَّ أَخَاهُ سَيَقْدُرُهُ ، وَسَيَكُونُ عَزِيزًا
عِنْدَهُ ، وَسَيُصْلِحُ عَلَيْهِ فِي الْبَقَاءِ مَوْفُورَ الْكَرَامَةِ .

— وَلَمْ يَكِدْ يَنْتَهِي مِنْ تَفْكِيرِهِ حَتَّى نَهَضَ إِلَى خَزَائِنِهِ ، وَأَخْرَجَ
مِنْهَا خُرْجًا مَلَأَهُ ذَهَبًا وَأَمْرَ غِلْمَانِهِ أَنْ يُسْرِجُوا بَغْلَةً تَقْوَى عَلَى السَّفَرِ
الطَوِيلِ فِي نَشَاطٍ وَسُرْعَةٍ ، وَيُجَهِّزُوهَا بِأَنْوَاعِ الزَّيْنَةِ ، حَتَّى تَبْدُو كَأَنَّهَا
عُرُوسٌ مُجَلُّوَةٌ ، وَأَنْ يَضَعُوا الْخُرْجَ عَلَيْهَا تَحْتَ بَسَاطٍ حَرِيرِيٍّ مِنْ فَوْقِهِ
سَجَادَةً ؛ ثُمَّ قَالَ لَهُمْ : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَتَفَرَّجَ مِنْ ضَيْقٍ فِي صَدْرِي ، وَهُمْ

يُساورُنِي بالسَّيُوحَ خارجَ المَدِينَةِ ، وفي أُنْحَاءِ القَلْيُوبِيَّةِ ، ثلاثَ لَيَالٍ ، فَلَا يَتَّبَعُنِي مِنْكُمْ أَحَدٌ

ركبَ بَغْلَتَهُ ، وَأَخَذَ سَمَّتَهُ إِلَى الشَّرْقِيَّةِ ، حَتَّى دَخَلَ بَلْبِيسَ ، وَقَدْ اتَّصَبَ مِيزَارُ النَّهَارِ ، وَبَعْدَ أَنْ أَطْعَمَ بَغْلَتَهُ ، وَأَكَلَ غِذَاءَهُ ، وَتَزَوَّدَ بِبَعْضِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الزَّادِ — رَكِبَ الطَّرِيقَ ، وَكَانَ كُلَّمَا قَطَعَ مَرَحَلَةً اسْتَرَاخَ ، ثُمَّ اسْتَأْنَفَ السَّيْرَ ، وَظَلَّ كَذَلِكَ حَتَّى انْتَهَى بِهِ السَّيْرُ إِلَى مَدِينَةِ الْقُدْسِ ، فَاسْتَرَاخَ فِيهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، ثُمَّ عَادَ وَاسْتَأْنَفَ الْمَسِيرَ حَتَّى مَدِينَةِ حَابَ . وَهَنَّاكَ نَزَلَ فِي خَانَ مِنْ خَانَاتِهَا ؛ وَبَعْدَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ مِنْ نَزُولِهِ ، رَكِبَ بَغْلَتَهُ ، وَسَارَ هَائِئِذَا ، لَا يَدْرِي أَيْنَ هُوَ ذَاهِبٌ ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى مَدِينَةِ الْبَصْرَةِ ، وَكَانَ قَدْ دَخَلَهَا لَيْلًا ؛ فَسَأَلَ عَنْ خَانٍ يَبِيتُ فِيهِ ، فَذَلَّهُ النَّاسُ عَلَى خَانٍ ، فَذَهَبَ إِلَيْهِ .

— دَخَلَ الْخَانَ ، وَأَخَذَ الْخُرْجَ ، وَفَرَشَ السَّجْدَةَ ، وَأَمَرَ خَادِمَ الْخَانِ أَنْ يُرَوِّضَ الْبَغْلَةَ ، وَيَجُولَ بِهَا فِي شَوَارِعِ الْمَدِينَةِ هَادئًا مُتَأَنِّيًا حَتَّى يَجِفَّ عَرَقُهَا .

وَكَانَ وَزِيرُ الْبَصْرَةِ يُطِلُّ مِنْ نَافِذَةِ قَصْرِهِ ، فَرَأَى الْبَغْلَةَ مُطَهَّمَةً ، وَخَالَهَا بَغْلَةً وَزِيرٍ أَوْ مَلِكٍ ؛ فَأَمَرَ أَنْ يُؤْتَى بِالْخَادِمِ ، وَالْبَغْلَةَ الَّتِي مَعَهُ ؛ فَخَضَرَ وَقَبَّلَ الْأَرْضَ بَيْنَ يَدَيْهِ ثُمَّ سَأَلَ الْوَزِيرَ — وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا — :

مَنْ صَاحِبُ هَذِهِ الْبَغْلَةِ ؟ وَمَا صِفَتُهُ ؟

فأجاب شابٌ فتيٌّ، بهيُّ الطَّلعةِ، عَذْبُ الشَّمالِ، يكسوه الوقارُ
والمهابةُ؛ من أبناء التجار.

فانتفض الوزيرُ قائماً، وركب إلى الخانِ جواده، فلما رآه نورُ الدين
مقبلاً عليه بعد استئذانه، قام إليه وحيّاه أطيّبَ تحيةً وأحسن لقاءً،
وأجلسه تحفهُ التَّجَلُّ والاحترام.

الوزير الشيخ: من أين أقبلتَ يا ولدي؟ وماذا تريد؟

نور الدين: قدمتُ يا مولاي من مصر، وكان أبى وزيراً لسلطانها،
ثم مات؛ وأخذ يقصُّ عليه قصته إلى أن لقيته، ثم قال: وقد آليتُ على
نفسى ألا أرجعَ إلى مصرَ، حتى أسيحَ في الأرض، عامرِها، وغامرِها،
وأقفَ على ما فيها من غُيوبٍ وأسرار.

الوزير الشيخ: ما أشبهك بأبيك! ولقد اجتمعتُ به في البيت
الحرام، أيامَ الحجِ المباركة، وحدثني عنك، وعن أخيك، وكثيراً
ما كان يدعوكما بالسعاة والعزة، تغمده الله برحمته، وأرجوا ألا تطيعَ
نفسك يا ولدي فتَهلكَ، فاليسفرُ مشقةً، يصادف الإنسانُ فيه ما يُتعبه،
ويُنغصُ عليه حياته؛ ويُحبَّبُ إليه الموتَ، وخاصةً إذا كان وحيداً،
وليس له هادٍ يهديه الطريقَ، ولا دليلٌ يرشده إلى الخير؛ وأخشى عليك
يا ولدي من الأيامِ وبلائها.

ثم حبَّبَ إليه أن يصحبه إلى بيته، فنزل على رغبته، وانتقل إليه،
ومعه متاعه وبلغته، فأكرمَ الوزيرُ مشواه، وأحبَّه حبّاً جماً.

وبعد أيامٍ من مُقامِهِ ، قال له الوزيرُ : لقد كبرتُ سني ، ودنا
أجلى ، ولم يهب لي الله إلا بنتاً ، تقربُ منك حسناً ، طلب إلى يَدِها
كثيرٌ من رجالِ الدولة وكبرائها ، وذوى اليسار فيها — لأبنائهم ،
فلم أستجب لدعوتهم ، وقد نزل حُبِّي إياك ، منزلة السَّوِيْداء من القلب ،
فهل لك أن تقبلَ ابنتي جاريةً ، على أن تكونَ لها بعلاً ؛ إنك إن قبلتَ
أنبأتُ سلطانَ البصرة أنك ابنُ أخي ، ووثقتُ به صلتك ، حتى تكونَ
وزيراً بدلاً مني ، ولزمتُ بيتي لكِبر سني ، وعدمِ قُدرتي على الاضطلاع
بتدبير شئون الدولة .

— وبعد إطفاءِ قصيدة ، قال نور الدين : سمعاً وطاعة ، وأحمدُ الله
أن جعلَكَ والدًا لي ، يُحِبُّني ، ويمطفُ عليَّ ، ويُبادِلني ودًّا بُودَّ ،
وتقديرًا بتقدير .

أشرق وجهُ الوزير سرورًا ، أضاءتْ له أُنحاءُ المنزل ، وأمر غلمانَه
أن يهيئُوا حجرةَ الجلوس ، لرجالِ الدولة وأمرائها ، والبارزين فيها
من أقربائه وأصحابه .

— وحضر أولئك لتلبية الدعوة ، ولما كملَ جَمْعُهُمْ وقفَ فيهم قائلاً :
كان أخي وزيراً بمصر ؛ ولما وهب الله له ولدين أوصاني أن أزوجه
ابنتي من أحدهما ، ولما طاب لها الزواجُ أرسلَ إليَّ ابنته لانتْفَذَ وصيَّته ،
وهو هذا الشابُّ الفتيُّ الجالسُ بينكم ، وقد رأيتُ أن أمْلِكْهُ إياها هذه
الليلة ، فدعوتكم لذلك .

— فقالوا : نعم ما فعلتَ ، وبُوركَ له فيها ، وبُوركَ لها فيه ، وتمنوا
لها أن يعيشا عيشةً رغدة سعيدة هانئة ، وأن يُنجبا بنين وبناتٍ تقرأ بهم
عيونهما ، وتحمِلُ بهم حياتهما .

ثم شربوا شرابَ الزَّواج ، وانصرفوا إلى سبيلهم
أما نورُ الدين فقد دخل بزوجهِ .

ولما رجع شمسُ الدين من سفرهِ ، ووقف على أمر أخيه ، ساوَرَهُ عليه
هَمٌّ ثَقِيلٌ ، وقلقٌ كثيرٌ ، وندَمٌ على ما أغلَظَ في قولهِ ، وظنَّ أَنَّهُ عِلَّةُ
هذا الفراق ، وَخَشِيَ ألا يكونَ من بعده تَلَاقٌ ، ورفع إلى السلطانَ نَبَأَهُ ،
فأصدر أمرَهُ في الأقاليم إلى نُوابِهِ بالبحث عنه في كلِّ مكانٍ ، والجِدِّ في
طلبهِ أَنَّى كانَ ، ولكن ضاع كلُّ جَهدٍ سدى ، إذ فات الأوانُ ، وضم
نور الدين قطرُ آخرُ من الأقطار ، فأخْلَدَ إلى اليأس والقنوط ، مُقَرَّعًا نَفْسَهُ
على ما فَرَّطَ في جَنبِ أخيه ، وبعد مدة طويلة لَسِيَ فيها أخاه بعضَ
النسيان ، وخَفَّتْ حِدَّةُ قَلْقِهِ وَهَمُّهُ — تزوَّجَ بنتَ لتاجرٍ مصريٍّ ،
وشاء القدرُ أن يكونَ دخولُهُ بزوجهِ في مصر ، ودخولُ أخيه بزوجهِ في
البصرة في ليلة واحدة ، وأن يكونَ حَمْلُ الزوجين في تلك الليلة نفسِها ،
ووضعت زوجُ شمسِ الدين أنثى وسماها حياةَ النفوس ، ووضعت زوجُ
نور الدين ذكراً وسماه حَسَنًا بدرَ الدين ، وكان لا يفترقُ أحدُ المولودين
عن الآخر في رَوْعَةِ الجمال ، وبهاء الطلعة إلا أن هذا ذكر ، وتلك أنثى ،
وذلك تقدير العزيز العليم .

(٢)

صَحِبَ نَوْرُ الدِّينِ حَمَاهُ الْوَزِيرَ إِلَى السُّلْطَانِ بِالْبَصْرَةِ ؛ فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ
أَعْجَبَ بِفَصَاحَةِ لِسَانِهِ ، وَقُوَّةِ بَيَانِهِ ، وَحِلَاوَةِ حَدِيثِهِ ، وَحُضُورِ
بُدَيْهِتِهِ ، وَتَوَقُّدِ قَرِيحَتِهِ ، وَتَوَثُّبِ الْفُطْنَةِ فِي عَقْلِهِ ؛ فَسَأَلَ عَنْهُ وَزِيرَهُ ،
فَأُطْلِمَهُ عَلَى جَمَلَةِ أَمْرِهِ ، فَعَجِبَ السُّلْطَانُ أَنْ يَكُونَ هَذَا ابْنَ أَخِي الْوَزِيرِ ،
وَلَمْ يَعْلَمْ مِنْ أَمْرِهِ شَيْئًا ، فَقَالَ :

أَعَزَّ اللَّهُ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ ، وَأَدَامَ عِزَّ الْمَلِكِ بِدَوَامِ عِزِّهِ ، إِنَّهُ كَانَ مَعَ
أَبِيهِ بِمِصْرَ ، وَلَمَّا مَاتَ أَبُوهُ تَوَلَّى ابْنُهُ الْأَكْبَرُ الْوِزَارَةَ مِنْ بَعْدِهِ ،
وَاسْتَدْعَيْتُ الْأَصْغَرَ هَذَا ، وَزَوَّجْتُهُ ابْنَتِي تَنْفِيذًا لَوْصِيَّةِ الْمَغْفُورِ لَهُ أَخِي .
فَقَالَ السُّلْطَانُ : أَبْقِ اللَّهَ حَيَاتَكَ ، وَمَدَّ فِي عَمْرِكَ ، وَعَظَّمْ أَجْرَكَ فِي
أَخْتِكَ ، وَجَعَلْ الْخَيْرَ فِي ابْنِهِ ، وَبِالْإِفَاءِ وَالْبَيْنِ زَوَاجُ ابْنَتِكَ .

فَقَالَ الْوَزِيرُ : شَكَرَ اللَّهُ لِمَوْلَانَا السُّلْطَانِ عَظِيمِ فَضْلِهِ . وَجَمِيلِ إِحْسَانِهِ
وَجَعَلَ الْوَزِيرُ يَصْطَحِبُ نَوْرَ الدِّينِ كُلَّمَا ذَهَبَ إِلَى السُّلْطَانِ لِيُرِيَهُ
الْعَجَبَ مِنْ آيَاتِ ذِكَاثِهِ ، وَاسْتِقَامَةِ قَوْلِهِ ، وَسُمُوِّ تَفْكِيرِهِ ، وَعَظِيمِ
وَلَانِهِ وَإِخْلَاصِهِ ؛ فَيَهْدِي بِذَلِكَ السَّبِيلَ إِلَى أَنْ يَرْفَعَهُ السُّلْطَانُ إِلَى مَرْتَبَةِ
الْوُزَرَاءِ ، وَتَمَّ لَهُ ذَلِكَ .

فَجَعَلَ أَحَدَ وَزَرَائِهِ الْمُقَدَّمِينَ عِنْدَهُ ، الْمُقَرَّبِينَ إِلَيْهِ .

وَمَا زَالَ الْوَزِيرُ نَوْرُ الدِّينِ يَتَقَدَّمُ الْوُزَرَءَ بِفَضْلِهِ ، وَثَاقِبَ رَأْيِهِ حَتَّى

أصبح أحبهم إلى السلطان ، وأقربهم مودةً ومنزلةً ؛ فلا يستغنى عنه في عظيم الأمور وصغيرها ، وعامها وخاصها ، وقد تفتحت له أبواب الرزق الوفير فملك المزارع والبساتين ، والدور والقصور ، وسارت القوافل ببضائع تجارتِه مُشرَّقةً ومُغرَّبةً ، ذاهبةً وجائيةً .

وفوق أنه كان أثيراً عند السلطان ، كان كذلك ينعم في ظلال زوجته بحياة منزلية سعيدة ، ورزقه الله ولداً ، وسماه حسناً .

ولما بلغ ابنه حسنٌ أربع سنين توفى جدُّه الوزيرُ البصريُّ ففقد بذلك أعظم الناس رعايةً له ، وقياماً بشئونه ، وخلقه والدُّه في ذلك .

حتى بلغ أشدَّهُ ، فوكل أمر تعليمه وتحفيظه القرآن الكريم إلى خير الفقهاء بالبصرة فقام الفقيهُ بما وُكل إليه في قصر أبيه الذي اتسع كثيراً ، حتى كان فيه كلُّ شيءٍ ليحسن ، ففيه المدرسة التي يُلقنه فيها أساتذته العلم ، وفيه ملاعبه التي يرح فيها ويلعب ، وفيه متزهاتُه بين الحدائق والأشجار ؛ لذلك لم يكن حسنٌ في حاجةٍ إلى مغادرته ، فبقى مقبلاً فيه لا يبرحه في ليلٍ أو نهار .

وذات يومٍ ألبسه أبوه حلةً فاخرةً ، وأخذه معه إلى السلطان ، فبهَرَ بحسنه مَنْ في القصر جميعه ، وملك على السلطان قوَّاده ، فأمر أن يحضر إليه كلُّ يومٍ في مُصْحبةٍ أبيه ، فكان ما أمر به .

ولما بلغ حسنٌ من العمر خمسة عشر عاماً ، ضُغِف والدُّه نور الدين ، وأحسن دُئوَّ أجله ، فأجلسه بين يديه ، وأوصاه بالناس إحساناً ، وأن

يبتغى فيما آتاه الله الدار الآخرة ، ولا ينسى نصيبه من الدنيا ، ولا يبغي الفساد في الأرض ، وأن يأمن الناس بوائقه ، ويحب لهم ما يحب لنفسه ؛ ثم أطلعه على كل ما جرى له ، وأملى عليه في قرطاس ذلك جميعه ، وتاريخ قدومه البصرة ، وزواجه من أمه ، وحملها ووضعها إياه ، وقال : احفظ هذا القرطاس ، فإن أصابك مكروه ، فاذهب إلى عمك بعصر ، وأعلمه أني مت غريبا ، أتلهف إليه شوقا ، فصدع حسن بأمر والده ، وطوى القرطاس ، ولف عليه خرقة مبطية بالشمع ، وخاطها بين الظهارة والبطانة من ثوبه .

جعل المرض يشتد وطأة بنور الدين ، حتى جاء أجله ، فقضى نحبه ، وأسلم روحه إلى بارئها ، قدفته ابنة في حفل رهيّب ، وحزن شامل . وانقطع عن السلطان شهرين كاملين ، لازم فيهما بيته ، فصفا جو الوزارة لوزير كان ينافس والده الزاقي لدى السلطان ، واتخذ من انقطاعه سبيلا إلى الوشاية به ، فأمر السلطان بمصادرة أملاك الوزير الراحل نور الدين ، والقبض على ابنه حسن نور الدين ، ليحكم فيه بما يشاء ، وكان من بين العسكر مملوك لأبيه ، فاعلم بجليّة الأمر ، حتى أسرع إلى حسن في بيته ، وقال له : الآن انج بنفسك ، واترك كل شيء يعوقك ، وإن كنت في أشد الحاجة إليه . وأعلمه أمر السلطان فيه ، وفي ميراثه عن أبيه .

فتكرّ وفرّ هاربًا ، وكان يستمع من الناس ما يرددونه من أمر السلطان

في حزن وأسى ، من مصادرة الأملاك ، والقبض على حسن لقتله ، فكان ذلك يزيدہ جداً وكدحاً في الهرب والفرار ، ولكنه مرَّ على قبر أبيه ، وجلس عنده ، يدعو له بالمغفرة ، ويسأل الله العونَ والنجاة :

وبينما هو جالس إذ قدم عليه يهودىٌّ من البصرة ، فقال له : مالى أراك متغيرَ الحال ؟

فقال : رأيت في المنام أن المغفورَ له والدى ، يعتبُ عَلىَّ عدمَ زيارته ، فلما استيقظتُ جئتُ مُسرِعاً قبل أن تشغَلنى الأعمالُ ، وينقضىَ النهارُ ، فيفوتننى التعجيلُ بها .

فقال اليهودىُّ : إن أباك له بضائع قادمةٌ إلى البصرة في مراكب ، وقد ورد بعضها ؟ فبِعْنِي إياها بألفِ دينار ، فباعها ونقدهُ الثمن ، وناولهُ عقداً بالبيع ، ومضى اليهودىُّ لسبيله

لَعَبَتْ بِحَسَنِ الْأَفْكَارِ ، فَأَلْهَتْهُ عَنِ السَّيْرِ ، حَتَّى غَشِيَهُ اللَّيْلُ ، وَغَلَبَهُ النَّوْمُ فَاسْتَلْقَى عَلَى ظَهْرِهِ ، مُسَلِّماً إِلَى اللَّهِ وَجْهَهُ ، مَفْوضاً إِلَيْهِ أَمْرَهُ . وَكَانَتِ الْمَقْبَرَةُ عَامرةً بِالْجَنِّ الْمُؤْمِنِينَ ، فَعَثَرَتْ بِهِ جَنِّيَّةٌ فِي أَمْنَاءِ سِيرِهَا ، فَوَقَفَتْ مُعْجَبَةً بِبَاهِرِ جَمَالِهِ ، وَقَالَتْ : سُبْحَانَ اللَّهِ ! مَا إِخَالُ هَذَا الشَّابِّ إِلَّا مِنَ الْخُورِ الْعَيْنِ ؛ ثُمَّ طَارَتْ فِي الْجُودِ كَمَا دَتَهَا ، فَالْتَقَتْ بِعَفْرِيتٍ وَحَيْثُ تَحِيَّةٍ طَيِّبَةٍ ، فحَيَّاها بِأَحْسَنَ مِنْهَا ، ثُمَّ سَأَلَتْهُ : مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ ؟ فَقَالَ : مِنْ مِصْرَ ؛ فَقَالَتْ : هَلْ لَكَ أَنْ تَأْتِيَ مَعِيَ لِأُرِيكَ شَاباً

في مقبرة البصرة ، لم ترَ عيني أجلَ منه ، ويُحْيِلُ إلى أنه من الحورِ العين .

فطارا إليه ، وما رآه العفريتُ حتى ابْدَرَهَا قائلًا : سبحان من ليس كمثلِ شيء ! لقد رأيتُ قبلَ الآنَ بمصرَ بنتَ الوزيرِ ، وإنها لتُشبهُ هذا الشابَّ ، حتى كأنها هو ، أو كأنه هي ، وقد خطبها الملكُ من أبيها ، فاعتذر بما يعامه الملكُ مما جرى بينه وبين أخيه ، وأنه لهذا حلف ألا يُزَوِّجَ ابنته إلا من ابن أخيه ، وقد عَلِمَ أنه أنجبَ من بنتِ وزيرِ البصرة ، فهي لذلك موقوفةٌ عليه ؛ ثم إنه كتب بذلك وصيةً ، خشية أن يأتية أجله قبل تنفيذِ رغبته ، وأوضحَ فيها تاريخَ زواجه ، وحملَ زوجته ، ووضعها .

ولكن الملكَ لم يُرُقْ هذا في نفسه ، فثارتُ نائرةٌ غضبه ، وأقسم أن يُزَوِّجَهَا من أَحَقَرِ الناسِ عنده .

وكان لدى السلطان سائسٌ أحَدَبُ ، مقوسُ الظهرِ ، بارزُ الصدرِ ، جاحظُ العينين ، قصيرُ القامةِ ؛ وهو في جملته إنسانٌ مشوهٌ قبيحُ المنظرِ ، دميمُ الخلقةِ ، حقيرُ الصنعةِ ؛ لأن سياسةَ الخيلِ كانت من المهَنِ التي يحتقرونَ صاحبها ؛ فاجتمعت لهذا الرجلِ الدمامةُ من أطرافها .

أمر الملكُ أن يُزَوِّجَ الفتاةَ من هذا السائسِ ، وأن ترفَّ إليه في جمعٍ حاشدٍ ؛ وقد تركتُ الأحَدَبَ يُزَفُّ الآنَ ، والفتاةُ جالسةٌ تبكي حظَّها ، وتندبُ أباهَا الذي حرم عليه السلطانُ حضورَ زفافها ، ولكنَّ

البت أيتها الجنية أجمل من هذا الشاب . فقالت : يحسن أن نعمله إليها ، لنرى كيف تشابه خلقاً مع بُعد الدارين ، ونعمل على إنقاذ هذه الفتاة ، ونجعلها لهذا الفتى .

دخل العفريت تحتَه وحمله ، وطار في الجو به ، والجنية بحذائه تحرسه ، حتى حطه بمصر على مصطبة ، ونبيهه فاستيقظ ، فوجد نفسه في أرض غير أرض أبيه ، فبادره العفريت وقال له : لقد جئت بك إلى مصر ، وأردت أن أقدم لك شيئاً ينفعك ، ابتغاء مرضاة الله ، فاستمع لما أقول ، ولا نعص لي أمراً ، واحمد الله على نجاتك من القوم الظالمين :

— واضطجبه معه لحضور عرس الأحدب ، وقال له :

خذ هذه الشمعة ، وقف بجوار العروس الأحدب ، ولا تحش أحدًا ؛ فإذا مرَّ بك الراقصات والمغنيات — فضع يدك في جيبيك ، وانقذهن ما تجد فيه من دنائير ، في سخاء وكرم ؛ واعلم أنك لا تضع يدك في جيبيك إلا وجدته مملوءاً ذهباً ، فلا تحش له تفاداً ، وهذا كله بحول الله وقوته

جلس حسن بين الناس ، ثم ساروا جميعاً يزفون الأحدب ، إلى بيت الوزير ، وكلا مرَّت المغنيات والراقصات بحسن ، أعطاهن ما معه من الذهب ، حفنة حفنة ، فأحببته لاله وجماله ، حتى وصلوا إلى بيت الوزير ، وهناك منع الناس من الدخول ، ولكن المغنيات والراقصات



أَصْرَرْنَ عَلَى أَنْ يَدْخُلَ حَسَنٌ مَعَهُنَّ ، وَأَنْ يَحْضُرَ زَفَافَ الْعُرُوسِينَ
وَجَلُوسَهُمَا ، فَقَدْ غَمِرَهُنَّ بِإِحْسَانِهِ وَذَهَبِهِ .

وَدَخَلَ مَعَهُنَّ بَهْرُ الزَفَافِ ، فَوَجَدَ نِسَاءَ الْوُزَرَاءِ وَالْأُمَرَاءِ وَالْحَجَّابِ
وَالْأَعْيَانِ وَالْوُجُهَاءِ صَفَيْنِ فِي يَدِ كُلِّ مَنَّهُنَّ شَمْعَةٌ مُوقَدَةٌ ، فَلَمَّا رَأَيْنَهُ
اِكْتَبَرْنَهُ ؛ وَقُلْنَ : مَا هَذَا بِشَرٍّ إِنَّ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ؛ وَأَخَذَ مَكَانَهُ
بَيْنَهُنَّ مَسْكَا شَمْعَةٍ مُوقَدَةٍ مِثْلَهُنَّ ، وَكَانَ مَوْضِعَ إِعْجَابِهِنَّ وَغِبْطَتِهِنَّ ، كَمَا
كَانَ الْأَحْدَبُ مُحِيطًا سُخْرِيَتِهِنَّ وَعَمَزِهِنَّ وَلَمَزِهِنَّ ، وَقُلْنَ : كَيْفَ
لَا يَكُونُ هَذَا الشَّابُّ الْجَمِيلُ زَوْجًا لِهَذِهِ الْفَتَاةِ الْجَمِيلَةِ ؟ ! وَكَأَنَّهُمَا لَمْ
يُخْلَقَا إِلَّا لِئَكُونَا زَوْجَيْنِ مُتَّحَايَيْنِ ، لِيَسْتَمْتَعَ كُلُّ مَنَّهُمَا بِصَاحِبِهِ ،
وَكَيْفَ تُنْقَضُ حَيَاةُ هَذِهِ الْفَتَاةِ بِذَلِكَ الْأَحْدَبِ الْقَبِيحِ ، الَّذِي تَشَمَّنَتْ مِنْهُ
النَّفُوسُ وَتَفْزَعُ ؟ ! أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى هَذَا الظُّلْمِ وَأَهْلِهِ ؛ وَلَقَدْ أَثَارَ
إِعْجَابَهُنَّ بِحَسَنِ تِلْكَ الدَّنَائِيرُ الَّتِي كَانَ يُلْقِيهَا فِي دُفُوفِ الْمَغْنِيَاتِ
وَالرَّاقِصَاتِ ، حَفْنَةً حَفْنَةً .

وَلَمَّا انْتَهَتْ الْجَلُوءُ خَلَا الْبَهْرُ إِلَّا مِنْ حَسَنِ وَالْأَحْدَبِ ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ
الْأَحْدَبُ قَائِلًا : لَقَدْ تَفَضَّلْتَ عَلَيْنَا اللَّيْلَةَ بِكَرَمِكَ ، وَالْآنَ لَيْسَتْ لَكَ
حَاجَةٌ ، فَلِمَ لَمْ تَخْرُجْ وَتَذْهَبَ إِلَى سَبِيلِكَ ؟ فَقَامَ حَسَنٌ ، وَمَشَى حَتَّى
كَانَ أَمَامَ بَابِ الْبَهْرِ فَاسْتَوْقَفَهُ الْعَفْرِيْتُ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَدْخُلَ الْبَهْرَ ثَانِيَةً ،
وَإِذَا مَا خَرَجَ الْأَحْدَبُ إِلَى الْمَرْحَضِ ، فَعَلَّ مَا أَمَرَهُ بِهِ ، فَاسْتَجَابَ حَسَنٌ لَهُ .
ذَهَبَ الْأَحْدَبُ إِلَى الْمَرْحَضِ فَظَهَرَ لَهُ الْعَفْرِيْتُ فِي شَكْلِ فَارٍ ،
وَصَاحَ : زَيْقُ ، زَيْقُ ؛ لِحَسْبِهِ فَارًا حَقِيقِيًّا ، وَلَمْ يَخْرُجْ عَنْ ثَبَاتِهِ وَاطْمِئْنَانِهِ ،



فربض الفأرُ أمامه . وصاح : زيق ، زيق .

وأخذ يكبر ويكبر ، حتى كان قطاً كبيراً جعل يموء ، ويموء .
فحدّق إليه ببصره فزِعاً .

فجعل يكبر ، ويكبر حتى صار كلباً ، كاشراً عن أنيابه ، فحُبِسَتْ
أنفاسُ الأحَدبِ في صدره .

ثم جعل يكبر ، ويكبر ، حتى تغير إلى عجلٍ له قرنان ، كأنهما حرّبتان .
قال له : من أذن لك أن تتزوج معشوقتي ؟ فاستمطفه قائلاً : لقد تزوّجتها
على الرغم مني ، والحمد لله الذي سافك إليّ ؛ لتخلصني منها ، فإنني لست لها ،
ولست من أهلها ، وإنّي أرتقب الساعة التي أفرّ فيها من هذا الزواج بفارغ
الصبر ولولا أنّي سمعتُ من الفقهاء أنّ من قتل نفساً بغير نفس ، فكأنما
قتل الناس جميعاً ، لقتلتُ نفسي قتلاً ، فراراً من هذا الزواج الذي لا يتكافأ
فيه الزوجان ؛ فأين بنتُ الوزير من أحدبٍ حقيرٍ مثلي ؟ !

والآن أتوسلُ إليك أن تحتسبَ هذا الصنيعَ عند الله ، وتفكّ
ما بيني وبينها من رباط الزوجية ؛ فأجابه العفريت : ما دمت مُكرهاً على
هذا الزواج فمن العدلِ ألاّ أتعرضَ إليك أنتَ بأذى أو مكروهٍ . ولهذا
قد أصبحتَ في أمان مني ، ولكن عليك أن تدلّني على مَنْ أكرهَكَ
على هذا ، حتى أريه الأمرين ، وأذيقه العذابَ ضعفين .

فقال الأحدبُ : لا داعي إلى ذكره ، والله يعفو عن كثير ، ورجائي
أن تخلصني من هذا الزواج الذي كلّه ظلمٌ وجورٌ وقسوةٌ .

فقال العفريت : وما رأيك إذا عفوتُ عنك ، وعَمَّنْ أكرَهَكَ ؛
وتركتُ لك هذه الزوجَ تنعمُ بها بقيةَ حياتِكَ ، فقد تكونُ ذا
هَوًى إليها .

فقال الأحدبُ : إنَّ الجحيمَ أن تبقى هذه الزوجُ في عصمتي ، فإذا
فرقتَ بيني وبينها كان لك أجرُ المجاهدين ، وإذا أردتَ أن تجعلها هديةً
لأحدٍ من النَّاسِ ، فليس لها إلا فتى يشبهها جمالاً وحسناً ، حضر حفلةً
زفافها وجلوسها ، فإذا أحضرته الآن من حيث هو ، وزوجته منها كان لك
أجرُ الصابرين .

— فصار العفريتُ رجلاً ، وقال له : إذنْ فلتنظفْ نفسك ، ولتخرجْ
إلى البهو ، فستجدُنِي وتجد الفتى . وهناك نفعلُ ما رأيت . فقال الأحدبُ :
سمعاً وطاعة .

وكان العفريتُ قد أمر حسناً أن يدخلَ على حياةِ النفوسِ ويُفهمها أنه
زوجُها ، وأن أباهما ما فعل هذا إلا ليصرفَ عنها عيونَ الحساد ، وإن
الأحدبَ سيطلقها الآن ، وبعد ذلك . يُعقد الزواجُ على غيرِ علمٍ من أحدٍ ؛
حتى تكونَ في مأمنٍ من كيدِ الكائدين .

فقالت : الحمد لله الذي أذهبَ عني الحزنَ ، ومتى يكون ذلك ؟
فقال : الآن ، وفي هذا البهو ، فتفضلِي ننتظر القاضي ، والأحدبَ .
وما كادا يجلسان حتى دخل عليهما العفريتُ في هيئة قاضٍ ،
والأحدبُ بعد أن تطهر ؛ وما هي إلا لحظة حتى كان الطلاقُ والزواجُ ،

لأن الأحذب لم يكن دخل بها . وكان الشاهدان القاضى والأحدب ، ثم ذهب كلٌّ منهما إلى سبيله

أما حَسَنٌ فقد ذهب هو وزوجُه إلى فراشهما ، وخلع عمامته وجُبَّتته والصرة التي بها ألفُ دينار ، ولم يبق على جسمه إلا قميصٌ رقيق ، وأراد الله أن تحمل زوجته هذه الليلة .

وقبل مطلع الفجر ، قال العفريتُ لِلجِنِّيَّةِ : ادخلي واحملي حَسَنًا حتى نُرجِعَه إلى المقبرة كما كان ؛ فحملته الجِنِّيَّةُ ، وطارَتْ به ، والعفريتُ يجوارها .

وكان الجوُّ في ذلك الوقت تنطأيرُ شُهْبُهُ ، فأصاب العفريتُ شهابٌ أرداء قتيلا ، خافت الجِنِّيَّةُ على حسنٍ أن يُصابَ بِمَكْرُوهِ فنزاتْ به حيث أصيب العفريتُ ، وكان ذلك أمام مدينة دمشق ، وترَكَته على الأرض ، مُلقًى عَلَى ظهرِه في سُبَاتٍ عميق .

بدا الصباحُ ، وخرج الناسُ من المدينة استئونهم ، فالتَفَوْا هذا الشابَّ نائمًا . فراعهم جماله ، وذهبتْ بهم الظنونُ فيه كُلَّ مذهب ، ثم سألوهُ : أين كنتَ ؟ وإلى أين تقصد ؟ فقال :

كنتُ في مصر ، وقبلها كنتُ في البصرة هذه الليلة ، فرَمَوْهُ بِالْبَلَاءِ والجنون ، وتركوه وانصرفوا .

— دخل حَسَنٌ المدينة عسى أن يجدَ طعامًا يطعمه ، فدخل محلَّ طبّاخٍ معروفٍ بالشراسة والقسوة في المعاملة ، وما رآه ، حتى ألقى الله

حُبِّهِ فِي قَلْبِهِ ، فَأَكْرَمَ مَنْزَلَهُ ، وَعَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّخِذَهُ ابْنًا لَهُ وَيَعْمَلَ مَعَهُ
فِي مَطْبَخِهِ ، وَلَمَّا رَضِيَ حَسَنٌ بِذَلِكَ نَزَلَ الطَّبَاخُ الْمَدِينَةَ ، وَاشْتَرَى لَهُ
حُلَّةً فَاخِرَةً أَلْبَسَهُ إِيَّاهَا ، وَكَانَ قَدْ حَكَى لَهُ مَا وَقَعَ ، فَقَالَ : اكْتُمُ أَمْرَكَ
حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِفَرْجٍ مِنْ عِنْدِهِ .

(٣)

وَلَمَّا أَصْبَحَ الصَّبَاحُ ، وَانْشَقَّ الظُّلَامُ عَنْ نَوْرِ الْفَجْرِ ، وَطَارَ الْكَرَى
عَنْ مَمَاقِدِ أَجْفَانِ حَيَاةِ النُّفُوسِ ، وَاسْتَيْقَظَتْ مِنْ نَوْمٍ عَمِيقٍ طَوِيلٍ —
لَمْ تَجِدْ حَسَنًا بِجَانِبِهَا ، فَظَنَّتْ أَنَّهُ يَقْضِي حَاجَةً ، فَجَلَسَتْ تَنْتَظِرُهُ بِاسْمَةٍ
مُسْتَبْشِرَةٍ ؛ وَبَيْنَمَا هِيَ فِي انْتِظَارِهِ . إِذْ نَادَاهَا أَبُوهَا مِنْ بَابِ حَجَرَتِهَا ،
فَهَبَتْ مُسْرِعَةً إِلَيْهِ مَحْبِيَّةً : لَبِيكَ أَيُّهَا الْوَالِدُ الْعَزِيزُ ، وَكَانَ قَدْ أُسِرَ فِي
نَفْسِهِ أَنْ يَقْتُلَهَا إِنْ وَجَدَهَا قَدْ مَكَّنَّتِ الْأَحْدَبَ مِنْ نَفْسِهَا ، وَاسْتَأْذَنَتْهُ
أَنْ يَدْخُلَ وَيَجْلِسَ ، وَكَانَتْ دَهْشَةٌ وَالِدُهَا عَظِيمَةً أَنْ رَأَاهَا مُشْرِقَةَ الْوَجْهِ ،
تَكَادُ حَرَكَاتُهَا تَنْطِقُ بِمَا هِيَ فِيهِ مِنْ هِنَاءٍ لَمْ تُنْجِ غَيْرَهَا مِنَ الْعَالَمِينَ .
فَسَأَلَهَا فِي لَهْفٍ وَحَيْرَةٍ : هَلْ أَنْتِ مَغْتَبِطَةٌ بِهَذَا الزَّوْاجِ ؟

فَقَالَتْ فِي ابْتِسَامَةٍ تَشْعُرُ فَرَحًا وَطَرَبًا . وَكَيْفَ لَا تُسَرُّ مِثْلِي مِنْ
هَذَا الزَّوْاجِ الَّذِي لَمْ يُقَيِّضْ لَوَاحِدَةٍ غَيْرِي ، وَالَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُ نَظِيرٌ إِلَّا فِي
جَنَّاتِ النَّعِيمِ !!!

فزادت دهشته وتلهفه ، وقال : ومكنت هذا الخيث الأحذب من

نفسك ! ؟

فأجابت في هدوء كله اطمئنان وأمن : أي خيث الأحذب ؟
لم يعمد في الأمر خفاء ، فقد كشف لي الغطاء عن تديرك ، وأشكر
لك حرصك على بنتك أن تسمها عين الحاسدين .

فلم يفهم والدها شيئاً ، وقال في فورة غضب حادة : والله لئن كنت
قد مكنت هذا الأحذب من نفسك لأقتلنك شر قتلة .

فقالت : كائن بك أيها الوالد العزيز ؛ لا تعرف من أمرى شيئاً ،
لقد طلقت الليلة من الأحذب ، وبني بي حسن بدر الدين ، وإنه لفتى
إذا رأيته رأيت الحور العين !

فقال ما هذا الذي تقولين ! ؟

فقالت : وهذه عمامته وجبته ، وإنه الآن بالمرحاض ؛ وإني في

انتظاره .

وكانت قد طالت غيبة حسن ، فهم والدها بالمرحاض فوجد بابه
مفتوحاً ، وليس به أحد ، فأخذا يبحثان عنه في البيت فلم يعثرا عليه ،
فمادا إلى حجرة الزوج ، وجعل أبوها يفحص ملابسه ، فالتى عمامة
الوزراء ، وجبة الوزراء ، ووجد الصرة وبها ألف الدينار التي أخذها
حسن من اليهودي ثمناً لبضائع والده ، ثم وجد بين البطانة والظاهرة ورقة ،
ففضها وقرأ ما فيها ، فعلم منها أنه ابن أخيه نور الدين ، وعرف تاريخ

سفره من مصر، وما جرى له حتى توفاه الله. وما انتهى من قراءتها حتى
 خرم مغشياً عليه، ولما أفاق أخبر بنته بذلك، وذهب من فورهِ إلى
 السلطان وأنبأه ما حصل، وأطلعته على ورقته هو، التي سجل فيها
 تاريخ زواجه، وولادة ابنته، وعلى ورقة أخيه نور الدين التي سجل فيها
 ذلك، فألفاهما تطابقاً إحداها الأخرى، فعجب من هذا الأمر أيَّ
 عجب!

وأقام الوزير وابنته، ينتظران عودة حسنٍ ومرجعه، وانفجرت
 مدة الحمل عن غلام جاء آية في الحسن والجمال، فسَمَّوه عَجيباً، وكفله
 جدُّه؛ ولما بلغ أربع سنين ألحقه بمكتب، يتعلم فيه القراءة والكتابة،
 ويحفظ القرآن الكريم، وكان على جانبٍ من النشاط، وعزة النفس،
 وكثيراً ما كان يفتخر على أقرانه وأثرابه بأنه ابنُ وزير، حتى نال ذلك
 من نفوسهم، فبعثوا شكوهم منه إلى عريفهم، فقال لهم: أعلنوا بينكم أنه
 لا يجتمعُ بكم، ولا يشارككم في اللعب إلا مَنْ يعرفُ والدَه. ولما
 اجتمعوا أذاعوا ذلك بينهم، وجعلوا يتساءلون عن آبائهم، حتى جاء دورُ
 عجيبٍ، فقال: أبي شمسُ الدين وزيرُ مصر. فضحكوا منه، وانفضوا
 من حوله. فذهب إلى العريف شاكياً ضحك الأولاد منه، واستهزائهم
 به، فقال له: لا تعتقد أن أباك شمسُ الدين وزيرُ مصر، إنه جدُّك
 لأمك، وقد زوج أمك لسائسٍ أحمق، وجاءت الجنُّ ليلة البناء
 بها، فناموا عندها، ولهذا لا تعرفُ لك أباً.



نُحِفَّ عَجِيبٌ إِلَى أُمِّهِ يَبْكِي ، وَسَأَلَهَا عَنْ أَبِيهِ ، فَقَالَتْ : إِنْ أَبَاكَ
وَزِيرُ مِصْرَ شَمْسُ الدِّينِ .

فَأَجَابَهَا : إِنَّهُ أَبُوكَ وَجَدِي ، وَإِنْ لَمْ تَعْرِفْنِي بِأَبِي فَسَأَطْعِنُ نَفْسِي بِهَذَا
الْخَنْجَرِ ، فَبَكَتْ أُمُّهُ بَكَاءَ مُرًّا ، وَدَخَلَ عَلَيْهَا أَبُوهَا فَوَجَدَهَا تَبْكِي ،
وَأَفْضَتْ إِلَيْهِ بِمَا حَصَلَ ، فَعَمَلًا وَجْهَهُ سَحَابَةً مِنَ الْحُزَنِ ، وَخَرَجَ إِلَى
السُّلْطَانِ ، وَأَعْلَمَهُ مَا جَرَى ، وَطَلَبَ أَنْ يُؤْذَنَ لَهُ بِالسَّفَرِ إِلَى الْبَصْرَةِ لِلْبَحْثِ
عَنْ ابْنِ أَخِيهِ فَأُذِنَ لَهُ .

سَافَرَ الْوَزِيرُ وَبَنَتَهُ وَابْنَهَا ، وَأَخَذَ مَعَهُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ زَادٍ وَأَدَوَاتٍ
وَعِامَانٍ ، حَتَّى وَصَلُوا إِلَى دِمَشْقَ ، فَخَطُّوا رِحَالَهُمْ بِمِيدَانِ الْحَصْبَاءِ ، وَنَصَبُوا
خِيَامَهُمْ ، يَبْتَغُونَ الْإِقَامَةَ لِلِاسْتِجْمَاعِ وَالرَّاحَةِ ، وَقَضَاءِ مَا يَحْتَاجُونَ مِنْهَا ،
وَلِيَتَفَرَّجُوا عَلَى الْمَدِينَةِ ، وَمَسَاجِدِهَا وَأَبْنِيَّتِهَا ، تَنْفِيسًا عَنْ أَنْفُسِهِمْ ،
وَتَخْفِيفًا لِمَا بِهِمْ مِنْ غَمٍّ وَحُزَنِ .

وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَجِيبٌ ، وَفِي صُحْبَتِهِ غُلَامٌ مِنْ عِامَانِ جَدَّةَ ، فَاسْتَهْوَى
الدِّمَشْقِيُّونَ جَمَالَهُ ، وَحَسَنُ قَدِّهِ وَاعْتِدَالُهُ ، وَصَرَفَهُمْ عَنْ شُؤْنِهِمْ إِلَيْهِ ،
وَاتَّبَعُوهُ فِي مَرَّاحِهِ وَمَعْدَاهُ وَشَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقِفَ عَجِيبٌ أَمَامَ الْمَطْبِخِ الَّذِي
يَعْمَلُ فِيهِ أَبُوهُ ، فَتَعَارَفَتِ الْعَوَاطِفُ وَأَتَلَفَتْ وَشَافَجَ الدَّمُ ، وَحَنَّ كُلُّ
مِنْهُمَا إِلَى الْآخَرِ حَنِينَ دَمٍ وَفِطْرَةَ . فَتَلَطَّفَ إِلَيْهِ حَسَنٌ ، وَرَجَاهُ أَنْ
يَتَفَضَّلَ ، وَيَطْعَمَ شَيْئًا مِمَّا عِنْدَهُ ، فَلَمْ يَجِدْ عَجِيبٌ مَفْرَأً مِنْ تَلْبِيَةِ مَا يَحْسُهُ
فِي نَفْسِهِ مِنْ مِيلٍ إِلَى النُّزُولِ عَلَى رَأْيِهِ ، وَدَخَلَ الْمَطْبِخَ ، فَوَضَعَ حَسَنٌ

أمامه وعاء به حبُّ الرمان، ثم قال عجيبٌ ، إذا تَفَضَّلْتَ وقاسمتنا هذا الطعام كان لك الشكر الجزيل فعسى الله أن يجمعَ الشملَ ، وَيَقْضِيَ عَلَى الفُرْقَةِ .

فقال حَسَنٌ : ليس أحبُّ إلى نفسي من أن أَطْعَمَ معك الطعامَ ، فأكلوا هنيئًا ، وشربوا مريئًا .

غادر عجيبٌ والعلامُ المطبخَ فلم يُطَقْ حَسَنٌ بدرُ الدين صَبْرًا على فراقهما ، فأغلقَ المطبخَ ، وسارَ خَلْفَهُمَا مدفوعًا بغريزته ، ولئن سألته عن شيء يَدْفَعُهُ إلى ذلك لا تجد لديه جوابًا إلا أنه مَسُوقٌ سوقًا .

وقد لفتَ العلامُ نظرَ عجيبٍ إلى أن هذا الرجلَ الذي طعمنا عنده يقتنى أَثَرَنَا وَيَتَّبَعُ خطواتنا ، ونحشى أن يكونَ له في ذلك مَأْرَبٌ يَلْحَقُنَا منه مكروهٌ أو أذى . فلو زجرناه انصرف عنا .

فقال عجيبٌ دع الناسَ في سبيلهم ، حتى إذا ما انفرد بنا سبيلنا إلى خيامنا ، ووجدناه لا يزال يتبعنا زجرناه وطردها . ولكنَّ حَسَنًا لم يرجعْ ، وقد أَشْرَفَا على خيامهم فرماه عجيبٌ بحجرٍ شَجَّ جبينه ، فعصبَ رأسه بقطعةٍ من عمامته ورجع لا يَلْوِي على شيء وفي قلبه من الحسرة ما لا يستطيعُ دفعه ، وعاد إلى مطبخه يزاولُ عمله .

وبعد ثلاثة أيام من مُقامهم ارتحلوا إلى البصرة ، ولما استقرَّ بهم المقامُ فيها ذهب إلى السلطان الذي أكرم لقاءه ، وأخبره أنه جاء لأمر كذا ، وقصَّ عليه قصته ، فقال السلطان : رحم الله نورَ الدين

فقد كان وزيرى الذى أعتمدُ عليه فى السراء والضراء ، وقد مات منذُ خمسة عشرَ عاماً ، وأعقبَ ولداً اسمه حسنٌ بدرُ الدين ، افتقدناه ولم نلقَ له على أثر ، غير أن أمَّهُ لا تزالُ يئننا ؛ لأنها بنتُ وزيرى الأكبر . فاستأذنه أن يلتقى بها فأذنَ له ، وأمر أن ينزلَ عندها فى دارِ أخيه نور الدين .

دخل شمسُ الدين عليها فألفاها أمامَ قبر ابنها الرمزى كرمادِ الموقدِ المضطرم ، فعرفَّها بنفسه ، وبما جرى لابنها مع ابنته ، وأنه أعقبَ ولداً أسميناه عجيياً ، وهو معنا الآن . فولدَ فى نفسها الأمل ، ولكنه ليس كالأملِ المعسول ، يُولدُ فى النفوسِ المَرِحَةِ الغَضَّة ، وطلبتُ أن ترطبَّ كبدَها برؤيته ، فلما حضرَ ضَمَّتْهُ إلى صدرِها ، وأكبتُ عليه لثماً وبكاءً فقال شمس الدين : ليس البكاءُ سبيلاً إلى نيلِ الرغائب ، فاستعدي للرحيلِ معنا إلى مصر ؛ عسى الله أن يجمعَ الشتيت ، ويرأبَ الصدعَ ، ويمنَّ علينا بقاءِ ابنك وابنِ أخى . فقالت : ذلك خيرٌ وأبقى .

وارتحلوا مُشِيعِينَ مِنَ الْمَلِكِ بِمَظَاهِرِ الْإِجْلَالِ والتقدير ، وبعث مع الوزير إلى سلطان مصر الهدايا الفاخرة ، وجدُّوا فى الارتحالِ حتى نصبوا خيامهم بميدانِ الحصياء ، من مدينة دمشق ، وهو المكانُ الذى نزلوا به وهم قادمون ، وقرَّ رأيهم على الإقامة أسبوعاً كاملاً : يستجمُّون ، ويتزوَّدون ، ويشترُون بعضَ الهدايا إلى السلطان ، تقديرًا لِعَطْفِهِ وحَدَبِهِ عليهم .

وبعد أن اطمأن بهم المقام ، قال عجيبُ لعلامه : هيا بنا إلى دمشق
عسى أن نلتقي بذلك الرجل الذي أكرمنا ، واحتفى بنا وكان جزاؤه
منا أن نهرناه ، وشجبنا رأسه .

وأخذنا يسيران في شوارع المدينة حتى وصلا إلى مطبخه ، ولما التقيا
به ، وساما عليه - تحركت المواطفُ فيهم ، على نحو ما تحركت أول
لقاء ؛ ورغب حسنُ نور الدين أن يطعموا زاده ، فقال عجيبُ : على
شريطة ألا تتبغنا ، كما فعلتَ فعلتك الأولى ، فقال : لكما ذلك .

وجلس ثلثتهم يأكلون ، وأراد حسنُ أن يُطيلَ جلستهم ، ويزيدَ
إكرامهم ، فكان كلما فرغ وعلاه من حبِّ الرمان أحضر آخر ،
واستهوهم لذته ، فجعلوا يأكلون حتى امتلأت بطونهم ، ولم يمودوا
بعد في حاجة إلى طعام العشاء ، ثم انصرف عجيبُ وعلامه إلى أهليهما ،
وكانت الشمسُ قد آذنت بالمغيب .

أعدَّ طعام العشاء ، وجلست الأسرة حول المائدة ، وكان من ألوان
الطعام المعدة حبُّ الرمان ، وجلس عجيبُ والعلامُ ، وفي نفسيهما
زهادة ، وفي بطنيهما شبع ؛ ولما ذاق عجيبُ حبَّ الرمان ، لم يجد
في مذاقه اللذة التي وجدها في حبِّ الرمان الذي طعمه في مطبخ دمشق ،
فقال لجده : إن هذا أقلُّ جودةً وحلاوةً مما ذُقناه في دمشق ، فقالت
جده : وكيف ذلك ولم يستطع أحدٌ أن يُجيدَ طهيَ هذا الصنف إلا
ابني حسنُ بدر الدين وأمه ، فقال : يُحسنُ أن ترسلني في طلب شيء منه

لَتَقْفَىٰ بِنَفْسِكَ عَلَىٰ مَا يَنْهَمَا مِنْ فَرْقٍ .

فلما حضرَ وطَعِمَتُ منه شيئاً ، أصابها ذَهُولٌ ، وقالت : إِنْ صَدَقَ ظَنِّي فَإِنْ صَانَعَ هَذَا ابْنِي حَسَنٌ نُورُ الدِّينِ ، فتهض الوزيرُ من فوره إلى السلطان ، وناولَه كتابُ ملكِ مصر ، وبه رجاءُ التفضلِ ببذلِ المعونةِ في القبضِ على حَسَنِ بَدْرِ الدِّينِ ، وإيفادِهِ مع وزيره إلى مصر ، فأمرَ في الحالِ أَنْ يصحبَ الوزيرَ عشرونَ جُنْدِيّاً ، يكونونَ في طاعته ، وتحتَ إمْرَتِهِ ، حتى يقضىَ ما يشاء .

وسيقَ حَسَنُ بَدْرِ الدِّينِ إلى خيامِ الوزيرِ ، وهناك حَزَمُوا أمتعتهم واستأنفوا المسيرَ إلى مِصرَ ، حتى كانوا في يَدِ الوزيرِ .
كُلُّ ذَلِكَ وَلَا يَدْرِي حَسَنٌ مِنْ أَمْرِ شَيْئاً . ولقد أَمَعَنَ الوزيرُ في إخفاءِ معالِمِهِ عَنْ أُمِّهِ حتى لَا تَعْرِفَهُ إِلَّا فِي بَيْتِهِ ، فَقَضَى عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ مُلْتَمّاً ، بحيثُ لَا يَبْدُو مِنْ وَجْهِهِ مَا يَتِمُّ عَنْهُ ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ .

وهناك في قصره أَمَرَ أَنْ تَأْخُذَ حُجْرَاتُهُ وَأَبْهَؤُهُ وَكُلُّ شَيْءٍ فِيهِ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ لَيْلَةُ الْجَلْوَةِ ، وَأَسْرََّ إِلَى ابْنَتِهِ أَنْ تَأْوِيَ إِلَى فَرَّاشِهَا ، فَإِذَا مَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَوْجُهَا حَسَنٌ ، أَخْبَرَتْهُ أَنَّهُ أَبْطَأَ فِي الْمَرَحِاضِ ، وَلَا تَزَالُ فِي انتظارِهِ .

ولما جَنَّ اللَّيْلُ ، وَخَلَا الْبَهْوُ ، وَالْحَجَرَاتُ الَّتِي تُطْلُ عَلَيْهِ ، إِلَّا مِنْ حَسَنِ الْجَالِسِ ، وَحَيَاةِ النُّفُوسِ الْمُنْتَظِرَةِ فِي حَجَرَتِهَا . أَيْقَظَ حَسَنًا هَذَا السَّكُونُ الشَّامِلُ ، فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ ، وَدَارَ فِي الْبَهْوِ بَصَرَهُ ، فَإِذَا

بَهُوَ الْجُلُوءِ ، فقام ومشى نحو الحجرة التي فيها زوجته ، وما كاد يُطِلُّ
 من بابها ، حتى هَمَّتْ به قائلة : لقد أبطأت في المرحاض يا حسن !
 وأرجو ألا يكون ذلك عن علة ؛ فهل تريدني على شيء يُريحك ويهتتك ؟
 فلم يجر جواباً ، وأدهشه أن رأى الحجرة كما هي ليلة الزفاف :
 قهذه عمامته ، وهذه جُبَّتُهُ ، وهنا السرير وفرشه ، وهناك المرأة
 وأدوات التجميل والزينة ، وكلُّ شيء كما كان ، لا تبدل فيه ولا
 تغيّر ، ولا نقص ، ولا زيادة ، وقال في صوتٍ حائر :
 لم أكن في المرحاض ، ولكن كنتُ في دمشق أدِيرُ مطبخاً هناك !
 فقالت : لعلك قد أخذتلك في المرحاض سنة ، فرأيت فيما يرى
 النائمُ ما تحكى !

فقال : لقد اختلطَ عليَّ الأمرُ ، فالقيته يحملي موقناً أنه يقظةٌ ، وما
 أنا فيه الآن يسوقني إلى الظنِّ بأنه حلمُ النَّائمِ ، وإني أحمد هذه الجماعةَ
 الطيبة ، فلندع هذا الأمرَ إلى أن ينجلي صُبْحُهُ ، ونسأل الله تعالى أن
 يحوّلنا برعايته ، ويكتب لنا السلامة في النَّارَيْنِ .

وفي الصباح حضر الوزيرُ إليهما ، وأعلمهما كلَّ شيءٍ ، ثم غادرهما
 إلى الملك ، وبسط له كلَّ صغيرة وكبيرة ، فكان عَجِبُهُ عظيماً ، وأمرَ
 أن تُدوّن هذه الحوادثُ ، لتكونَ مسلاةً وذِكْرى ، ودَجَعَ إليه رضاه
 عن وزيره ، وبوّأه من نفسه مكاناً أعلى ، وأسبغ على الزوجين نعمة
 العظمى .



معروف الاسكافي

كان بمصر إسكافي يُسمّى معروفًا، وله زوجة تسمى فاطمة العرّة،
وكانت حَقَاءَ شَرَسَةِ الخُلُقِ، مجردةً من الذوقِ السليم والأدب، كثيرة
الإيذاء لزوجها، فتشتمه تارة، وتضربه أخرى، وتكلفه ما لا يُطيقُ
أداءه، غيرَ مُقدّرةٍ فقره، وضيق ذاتِ يده، والويلُ له إن قلَّ يوماً
مكسبه، أو طلبت شيئاً ولم يستطع إخضاره، يبيتُ ليلته في غمٍّ دائمٍ،
وشرٍّ لا يذوق معه التَّوَمَ، وكان معروف عاقلاً صبوراً يفضلُ احتمال
أذاها، خشيةً الفضيحةِ كلِّ ساعة.

وذات يومٍ قالت له، وهو ناهضٌ من نومه: لا ترجعْ إلى آخر
النهار إلا وممك كفاقة، وعليها غسلُ نَحْلٍ.

فقال : يَسْرُئِي أَنْ يُسَهِّلَ اللَّهُ الرِّزْقَ وَأَحْضَرَ لَكَ الْكَنَافَةَ ، وَأَنَا وَأَنْتَ رِزْقَنَا عَلَى اللَّهِ .

فقالت : سَهْلٌ أَوْ لَمْ يُسَهِّلْ فَلَا تُرِنِي وَجْهَكَ آخِرَ النَّهَارِ إِلَّا وَمَعَكَ الْكَنَافَةُ . . . !

فقال : لَا أَتَأَخَّرُ أَبَدًا عَنْ تَنْفِيزِ طَلِبِكَ وَأَرْجُو مِنْ اللَّهِ أَنْ يَرْزُقَنِي هَذَا الْيَوْمَ بِشَعْمِهَا .

فقالت : يَرْزُقُكَ أَوْ لَمْ يَرْزُقْكَ فَلَا بَدَّ مِنْهَا ، وَحَذَارُ أَنْ تَرْجِعَ بِدُونِهَا ، إِنَّكَ إِذَا تَبَيَّتُ فِي هَمٍّ وَغَمٍّ عَظِيمَيْنِ ، وَقَدْ أَنْذَرْتُكَ ، وَمَنْ أَنْذَرَ فَقَدْ أَعَذَرَ .

فقال : اللَّهُ كَرِيمٌ ، وَخَرَجَ وَهُوَ يَتَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ وَالنَّغَمِ إِلَى صَلَاةِ الصُّبْحِ ، فَصَلَّى وَفَتَحَ دُكَّانَهُ ، وَدَعَا رَبَّهُ ، أَنْ يَرْزُقَهُ ثَمَنَ الْكَنَافَةِ ، حَتَّى لَا تَغْمَهُ زَوْجُهُ . فَانْتَصَفَ النَّهَارُ وَلَمْ يَعْمَلْ بِدَرَاهِمٍ ، وَكَانَ الْقَدَرُ سَدَّ طَرِيقِ النَّاسِ إِلَيْهِ فِي هَذَا الْيَوْمِ . فَلَمْ يَذْهَبْ إِلَيْهِ أَحَدٌ ، فَأَقْفَلَ دُكَّانَهُ ، وَمَشَى مُتَحَيِّرًا مِنْ خَوْفِهِ ، حَتَّى كَانَ أَمَامَ دُكَّانِ بَائِعِ الْكَنَافَةِ ، فَوَقَفَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ . وَعَيْنَاهُ غَارِقَتَانِ فِي دُمُوعِ الْحُزَنِ الْأَلِيمِ ، فَنَادَاهُ بَائِعُ الْكَنَافَةِ وَقَالَ لَهُ :

مَا يَبْكُكَ يَا مَعْرُوفُ ؛ فَشَرَحَ لَهُ حَالَهُ ، وَمَا يَخْشَاهُ اللَّيْلَةُ مِنْ زَوْجِهِ إِذَا رَجَعَ إِلَيْهَا بَغِيرَ الْكَنَافَةِ ، ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي لَيْسَ مَعَهُ فِيهِ ثَمَنُ الْخَبْرِ وَطَعَامُ الْعِشَاءِ ، فَابْتَسَمَ بَائِعُ الْكَنَافَةِ وَقَالَ : كَمْ رَطَلًا تُرِيدُ ؟

فقال : خمسة أرطال ، فوزنها له ثم قال : السمنُ عندي ، وليس
عندي عسلُ النحل ، فهلُ أصنعُها بعسلِ القصبِ ؟ إنه في رأينا أحسنُ
من عسلِ النحل ، وأنا كُلُّها به كثيرًا ، ويكونُ لها به طعمٌ لذيذٌ .
فقال معروف : لا بأسَ في ذلك ، فاصنعها بعسلِ القصب ، وصنعها
بائع الكنافة صنعَةً تُهدى بها إلى الملوك ، ثم قال : وأظنك تحتاجُ إلى
خبزٍ وجُبِن ؟

فقال : نعم ، فأعطاه كل هذا ، وبلغ ثمنه خمسة عشرَ نصفًا ، ثم
قال له : اذهبْ إلى زوجك ، وكلا هنيئًا ، وشرحْ صدركَ اليلةَ
بِسُرورِ زوجك ، وخذْ هذا النصفَ لك أجره الحام ، وسأصبرُ عليكِ
حتى يرزقَكَ الله ، وتصبحَ قادرًا على أداءِ هذا المبلغ ، فشكرَ معروفُ
لبائع الكنافة فضلَه ، وحمدَ الله الذي أكرمه وحَفِظَه .

ولما دخلَ علىَ زوجته قالت :

هلْ أتيتَ بالكنافة ؟ ؟

فقال : نعم ، ووضعتها قدامها ، فوجدتها مصنوعة بعسلِ القصب ،
فغضبتْ وقالت : كيف تخالفُ أمرى ؟ وتضعُ عليها عسلَ القصب ؟
فقال : لم أرزقْ هذا اليوم ، وقد اشتريتها بثمنٍ مؤجل ، وليسَ عند
بائعها عسلُ النحل . فغضبتْ ودرمتْ بها في وجهه ، ونزلتْ عليه ضربًا
حتى كسرتْ سنَّته ، وسال الدمُ علىَ وجهه .

فاغتاضَ منها ، ودفعها عنه بيده ، فأمسكتْ لحيته وصوتتْ ، فأسرعَ

الجيرانُ إليها ، وخلصوا لحيته من يدها ، وعرفوا من زوجها حقيقة أمرها ، فمأبؤها ولا مأوها وأنبؤها ، وقالوا : ليس في الكنافة عيبٌ وكنا نأكلها بعسلِ القصب ، ما هذا الظلمُ ؟ وما هذا التجبرُ ؟ إن زوجك رجلٌ فقيرٌ وصالحٌ وصابرٌ ، ولو كان شريراً لأذاقك المرَّ ، وكنتم أنفاسك وألبسك ثوب المهانة والضرَّ ، ثم أصاحوا بينهما وخرجوا ولكنَّ فاطمةَ العرة أصرت على غضبها ، وحلفت ألا تأكل من الكنافة ، وكان معروف قد اشتدَّ به الجوع فجلس يأكل الكنافة وحده . . .

فقالت : تأكلُ الآنَ سَماً يفرى بدنك .

فقال : ليس السمُّ بكلامك ، وإذا رزقني اللهُ عِداً ، اشتريتُ لك كِنافةً بعسلِ النحل ، وجعلتك تأكلينها وحدك ، ما دمتِ حلفتِ ألا تأكلِ من هذه الكنافة ، ولكنَّ غضبها لم يسكت ، وما زالت تشتمه وتسبه حتى الصباح .

ولما استيقظَ من نومه ، خرج إلى صلاة الصبح وإلى دكانه ، مُشيعاً منها باللعناتِ والشتائم ، وما لبث في دكانه غير قليل حتى حضر إليه اثنان يدعوانه إلى القاضي ، لأن امرأته شكتهُ إليه ، وقالوا إن صفتها كيت وكيت ، فعرفها وأقبل دكانه ، وصحبهما إلى القاضي فوجدها مربوطة الذراع ، ملوثة البرقع بالدماء ، وهي واقفة أمام القاضي تبكي وتمسح دموعها ، فقال القاضي لمعروف :

ألم تخف الله؟ كيف تتعدى على هذه الضعيفة، فتكسر ذراعها
وسنّها، وتضربها هذا الضرب الموضع؟
أما سمعت قول الرسول الكريم: «اتقوا الله في الضعيفين:
المرأة والرقيق»؟؟

فقال معروف: إن كنت فعلت شيئاً من هذا فلي غضب الله
والملائكة والناس أجمعين.

إن قصتها كينت وكينت، وحكى له كل شيء.
وكان القاضي من أهل البصرة والخير فقال: خذ ربع الدينار هذا،
واضع به كفاً يوصل النحل لها، واغفر لها زلتها، وأرى الصالح
خيراً لكما

فقال: أعطها ربع الدينار، تقبل به ما تشاء، ووصى القاضي المرأة
أن تطيع زوجها، والزوج أن يترفق بها، وخرجا مصطالحين، فسارت
في طريق، وسار هو إلى دكانه في طريق، وبعد أن جالس فيه قليلاً
جاءه رسول القاضي وطلباً أجرهما، فقال لهما: إن القاضي لم يأخذ مني
شيئاً، بل أعطاني ربع دينار، لما رآه من فقري وحاجتي.

فقالا: لا شأن لنا بما فعله القاضي، وإن لم تعطنا أجرتنا أخذناها
منك قهراً، واضطراه إلى بيع شيء من عدد صناعته، وأعطاهما نصف
دينار، وجلس في الدكان حزينا، إذ فقد بالبيع القوي كثيراً من عدته
التي يشتغل بها.

وبينما هو في حزنه وتفكيره ، إذ أقبلَ رجلان ، وطلبا إليه أن يقومَ إلى القاضى ، لسؤاله فى شكايته امرأته ، فقال : لقد اصطَلَحنا عند القاضى ، وأنا آتٍ من عنده الآن ، فقالا :

ذلك قاضٍ آخر ، شكَّكَ إليه ، فقمْ ولا تبطلْ ، فقامَ معهما ، وهو يتأملُ من أذاها ، ويرجو من الله أن يحفظَهُ منها ، حتى كانَ أمامَ القاضى ، فقالَ لها :

يا بنتَ الكرام ، إن القاضى أصلحَ بيننا هذا اليوم ، وخرجنا من بين يديه مُصْطَلحين

فَقَالَتْ : لا صاحَ بينى وبينك ، فحكى للقاضى حكايتها ، من بدئها إلى نهايتها . فاعتاظَ القاضى وقال :

يا كذَّابة ، كيف تشكينَ زوجك بعد أن اصطَلَحتما ؟ فقالت :

ضربنى بعد الصلح . . .

فقال : ومن يستمعُ لقولك ، بعد أن بَانَ كذبُك ، ثم أصلحَ هذا القاضى بينهما ، ووصاهما أن يعاملا بعضهما بعضاً بالمعروف والحسن ، وأذنَ لها بالانصراف ، وذهبَ هو إلى دكانه ، والدنيا تكادُ تكونُ أضيقَ من سَمِّ الخياطِ فى نظره ، ثم جاءه رجلٌ وأسرَّ إليه أن يهربَ الآن ، لأن زوجته شكته إلى البابِ العالى ، وبعدَ قليلٍ سيأتيه أبو طَبَقٍ ليأخذه إليه ، فهضَ لساعته ، وأقلَّ دكانه ، وهربَ إلى جهةٍ بابِ النصر وكانَ قد بَقِيَ معه خمسةُ أنصافٍ من الفضة ، من ثمنِ العُدَدِ التى

باعها ، ليعطى الرسولين أجرهما ، فاشترى بأربعة خبزاً ، وبنصف جُبْنًا ، وكان ذلك في عصر يومٍ من أيام الشتاء .

فلما كان بين الأكوام نزل عليه مطرٌ شديدٌ كأفوافِ القرب ، ووجد مَوْضِعًا خَرِبًا ، به مخزنٌ مهجورٌ لا بابَ له ، فدخل فيه يستكن من المطر ، ومن وطأة البردِ وشدة ، لأن ملابسه قد ابتلت ، واشتد به ألمُ التشرد . فبكى بكاءً مرًّا ، ورفع يديه إلى السماء قائلاً :

أَسْأَلُكَ يَا رَبَّ أَنْ تُقِيضَ لِي مَنْ يَأْخُذْنِي إِلَى بِلَادٍ بَعِيدَةٍ ، لَا تَعْرِفُنِي فِيهَا امْرَأَتِي ، فَانْشَقَّتْ فِي الْحَالِ حَائِطٌ فِي الْمَخْزَنِ ، وَخَرَجَ مِنْهَا شَخْصٌ طَوِيلُ الْقَامَةِ ، ذُو مَنْظَرٍ يَقْشَعِرُّ مِنْهُ الْبَدَنُ ، وَقَالَ :

مَا لَكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ ؟ إِنِّي مُقِيمٌ فِي هَذَا الْمَكَانِ مِنْذُ مِائَتَيْ عَامٍ ، فَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا دَخَلَهُ ، وَفَعَلَ مَا فَعَلْتَهُ ، وَقَدْ أَشْفَقْتُ عَلَيْكَ ، فَأَخْبِرْنِي بِمَا تُرِيدُ ، فَإِنِّي مُؤَدِّيهِ لَكَ ، فَقَالَ مَعْرُوفُ :

وَمَنْ أَنْتَ ؟

فَقَالَ : أَنَا جُنِّيٌّ وَسَاكِنٌ فِي هَذَا الْمَكَانِ ، فَأَخْبَرَهُ مَعْرُوفٌ بِكُلِّ

شَيْءٍ جَرَى ، فَقَالَ :

إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ أَنْ أَتَقَلَّكَ فِي الْحَالِ إِلَى بِلَادٍ بَعِيدَةٍ ، لَا تَعْرِفُهَا زَوْجَتُكَ ، وَلَا تَسْتَطِيعُ الْوُصُولَ إِلَيْهَا ، فَإِنِّي مُسْتَعِدٌّ لَذَلِكَ فَقَالَ : وَلَكِ شُكْرِي ، وَأَجْرُكَ عِنْدَ رَبِّي . فَقَالَ : أَرَكِبُ فَوْقَ ظَهْرِي ، وَطَارَ بَعْدَ الْعِشَاءِ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ، ثُمَّ نَزَلَ بِهِ عَلَى رَأْسِ جَبَلٍ عَالٍ ، وَقَالَ : انْزِلْ

من هذا الجبل ، فإنك واجدٌ في أسفلِ مَدِينَةٍ ، فادخلها وأقيم فيها ، ولا يخطرَنَّ ببالِكَ ، أنَّ زوجك تعرف السبيلَ إليك ، ثم ودَّعه وطار .

ولما نزلَ وجدَ مَدِينَةً ، أسوارُها متينةٌ عاليةٌ ، وقصورُها مشيدةٌ ، وهي مزدانةٌ بمحادثاتِها المبعثرة التي تُسرُّ الناظرين . فلما دخلها ومَشى في سوقها التفت من حوله أناسٌ كثيرون ، لأنه يختلفُ عن أهل المدينة ، في زيِّه وملبسه ، وسأله رجلٌ منهم : هل أنت غريب ؟ فقال : نعم ، فسأله : ومن أي البلاد ؟ فقال : من مَدِينَةِ مِصر السعيدة ، فسأل : ومنذ كم يوم فارقتها ؟ فقال : فارقتها عصرَ البارحة ، فضحك من إجابته وقال : تمالؤا أيها الناس ، واسمعوا ما يقول ذلك الرجل الغريب ، إنه يزعمُ أنه من مِصر ، وأنه خرجَ منها عصرَ البارحة ، فضحكوا جميعاً وقالوا له : يا رجل ، هل أنت مجنونٌ حتى تقول : إنك فارقتَ مِصرَ عصرَ البارحة ، والمسافةُ بينها وبينَ هذه المدينة ، مسيرةُ سنةٍ كاملة ؟ فقال : لستُ بمجنونٍ ولا كاذبٍ في قولي ، فهذا خبز مِصر لا يزالُ طرياً ، - وكان هذا الخبزُ لا يشبهُ خبزهم - فعجبوا لذلك .

وانقسمَ الناسُ قِسْمَيْنِ ، فريقٌ صدَّق ، وفريقٌ كذَّب .

وبينما هم كذلك إذ أقبلَ تاجرٌ غلي بغلته ، ومن خلفه عبدان يجريان في مصاحبته ، ففرَّقَ الناسَ قائلاً : أما تستحيون ؟ ! كيف تسخرون من رجلٍ غريبٍ لم يلبث فيكم إلا ساعةً من نهار ؟ ! ولم يزل يؤنبهم حتى فرَّقهم ، وما استطاع أحدٌ أن يردَّ له قولاً ، ثم قال لمعروف :

تعالَ مَعِيَ أَيُّهَا الْأَخُ ، وَلَا يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا سَمِعْتَ مِنْ هَؤُلَاءِ ،
فَهُمْ قَوْمٌ لَيْسَ عِنْدَهُمْ حَيَاءٌ ، وَأَدْخَلَهُ دَارَهُ الْوَاسِعَةَ الْمُزَخْرَفَةَ ، وَأَجْلَسَهُ
فِي حَجَرَةٍ مَقَاعِدُهَا مُلَوَكِيَّةٌ ، وَفُرُشُهَا سُندُسِيَّةٌ ، زِينَتُ جِدْرَانِهَا وَسُقْفُهَا
بِالْصُّورِ وَالْأَلْوَانِ الْجَمِيلَةِ ، وَأَمَرَ الْعَبِيدَ أَنْ يَحْضُرُوا لَهُ حُلَّةً تَاجِرٍ وَاسِعَ
الْغِنَى ، فَأَلْبَسَهُ إِيَّاهَا ، فَزَانَتْهَا وَزَانَتْهُ لِأَنَّهُ كَانَ وَجِيهًا ، ثُمَّ وَضَعَتْ أُمَامُهَا
الْمَائِدَةَ ، حَاطِيَةً مِنْ أَلْوَانِ الْأَطْعَمَةِ مَا لَذَّ وَطَابَ . فَأَكَلَا وَشَرِبَا حَتَّى شَبِعَا ،
ثُمَّ قَالَ لَهُ :

مَا اسْمُكَ أَيُّهَا الْأَخُ ؟ فَقَالَ : اِسْمِي مَعْرُوفُ الْإِسْكَافِيِّ ، فَسَأَلَهُ : وَمِنْ
أَيِّ الْبِلَادِ ؟ فَقَالَ : مِنْ مِصْرَ ، فَسَأَلَهُ : وَمِنْ أَيِّ حَارَةٍ ؟ فَقَالَ : وَهْلَ .
تَعْرِفُ مِصْرَ ؟ فَقَالَ : أَنَا مِنْ أَبْنَائِهَا ، فَقَالَ مَعْرُوفٌ : أَنَا مِنَ الدَّرْبِ
الْأَحْمَرِ ، فَسَأَلَهُ : وَمِنْ نَعْرِفُ مِنَ الدَّرْبِ الْأَحْمَرِ ، قَالَ مَعْرُوفٌ : أَعْرِفُ
فُلَانًا وَفُلَانًا ، وَذَكَرَ لَهُ أَسْمَاءَ كَثِيرِينَ مِمَّنْ يَعْرِفُهُمْ ، فَسَأَلَهُ : وَهَلْ تَعْرِفُ
الشَّيْخَ أَحْمَدَ الْغَطَارِ ؟ فَقَالَ مَعْرُوفٌ : إِنَّهُ جَارِي ، وَبَيْتُهُ بِجَوَارِ بَيْتِي ،
فَسَأَلَهُ : وَهَلْ هُوَ لَا يَزَالُ حَيًّا ؟ فَقَالَ : نَعَمْ ، فَسَأَلَهُ : وَكَمْ وَلَدًا لَهُ ؟
فَقَالَ : ثَلَاثَةُ أَوْلَادٍ : مُصْطَفَى ، وَمُحَمَّدٌ ، وَعَلِيٌّ .

فَسَأَلَهُ : وَمَا فَعَلَ اللَّهُ بِأَوْلَادِهِ ؟ قَالَ مَعْرُوفٌ : أُمَامُ مُصْطَفَى فَهُوَ مِنْ
الْعُلَمَاءِ ، وَيَقُومُ الْآنَ بِالتَّدْرِيسِ ، وَأُمَامُ مُحَمَّدٍ فَهُوَ غَطَارٌ ، وَلَهُ دُكَّانُ بِجَوَارِ
دُكَّانِ أَبِيهِ ، وَقَدْ تَزَوَّجَ وَرَزَقَهُ اللَّهُ بَوَلَدٍ سَمَّاهُ حَسَنًا ، فَقَالَ : بِشَرِّكَ اللَّهُ
بِكُلِّ خَيْرٍ ، قَالَ مَعْرُوفٌ : وَأُمَامُ عَلِيٍّ فَإِنَّهُ كَانَ رَفِيقِي فِي الصِّغَرِ ، وَكُنْتُ

أذهبُ معه إلى الكنيسة فنسرق كتب النصارى : ونبيعُها ، وذات يومٍ قبضوا علينا ، وشكَّونا إلى آبائنا ، وقالوا : إن لم يرتدعوا رفعنا أمرهم إلى الحاكم ، فضربَ علينا أبوه ، فهربَ لساعته ، ومن ذلك الوقت لا أعرف له مكاناً ، وهو غائبٌ منذ عشرين سنة ، ولم نعرف له خبراً ، فقال : أنا عليّ بنُ الشيخ أحمد العطار ، وأنت رفيقى يا معروف ، ففرح كل منهما بأخيه ؛ ثم قال عليّ :

وما سبَّبُ مجيئك من مصر ؟ وكيف جئت ؟ فقص معروفُ قصة زوجته ، من بدءِها إلى نهايتها ، ثم قال : ولعلَّ ضربَ والدك كان سببَ مجيئك من مصرَ إلى هذه المدينة ؟ فقال : كان الضربُ موجعاً ، أثار الطيشَ في نفسى ، وحسَّنتُ إليها الفرارَ هرباً ، فصرتُ أنتقلُ من بلدٍ إلى بلد ، ومن مدينةٍ إلى مدينة ، حتى استقرَّ بى المقامُ فى هذه المدينة ، واسمها اختيان الختن ، فرأيتُ أهلها كراماً ، ذوى عطفٍ وشفقة ، يُصدقونَ الغريبَ ويأتمنونَهُ ويُساعدونَهُ بالمالِ فيقرضونَهِ إياهُ إلى ميسرته فلما نزلتُ فيهم قلتُ لهم : إني تاجر ، وقد سبقْتُ بضاعتى ، وبودى أن تخلوا لى مكاناً أنزلها فيه ، ففعلوا ، ثم قلت : أليس فيكم رجلٌ كريمٌ يُقرضُنى ألفَ دينارٍ أتجرُ بها حتى تحضُرَ بضاعتى ؟ فأعطونى ما طلبتُ ، ونزلتُ السوقَ مُتجراً ، وكنتُ أربحُ فى كلِّ صفقةٍ ما لا يقلُّ عن خمسين ديناراً ، ولا زلتُ كذلك أتجرُ وأعاملُ الناسَ بالحُسنى حتى أصبحتُ من أغنيائهم ، وبنيتُ لى بيتاً لا يقلُّ عن بيوتهم ، ورددتُ إليهم ما كانوا أقرضونى

وإعلم يا أخى أن العاقل من يحتال لأمره ، حتى يفوز ويصل إلى ما يُريد ، وليست الحقيقة مقبولة في بعض الأحيان ، إذا كانت خفية الأسباب ، وأنت يا أخى إذا ذكرت قصتك على حقيقتها لا يصدقك أحدٌ خلفاء أسبابها ، وتصبح بسببها أحدى أحداث السنة الناس ، وإن ذكرت لهم طيران العفريت بك ، نفروا منك وخافوا أن يكونوا بجوارك حتى لا يؤذيهم عفريتك ، فقال معروف : وكيف أصنع ؟ فقال : سأعلمك كيف تعيش ، وكيف تصنع ، فاستمع لما أقول :

سأعطيك غداً ألف ديناراً وعبدان من عبيدى ، وبغلة تركبها وتذهب بها إلى سوق التجار ، والعبد يجرى أمامك ليذلِكَ على الطريق ، وليكون تحت أرك ، وسيكون التجار مجتمعين غداً في هذه السوق وأنا فيهم ، فإذا قدمت وسامت عليهم ، أسرعت بالقيام إليك ، وتقيل يديك ، وتعظيم قدرك ، ورفع شأنك ، وإن سألتك عن أى صنف من أصناف القماش قلت : هل جئت بشئ منه فقل : جئت منه بشئ كثير ، وكلما سألوني عنك أكبرتُك في نفوسهم ، وأفهمتهم أنك تاجر غنى كريم ، ولهذا فإذا جاءك سائل فأعطه ما تيسر ، ولا تردّه خائباً ، حتى تعزز قولى فيك ، وسأجمعك بهم في وليمة حافلة عندي ، لأعرفهم بك وأعرفك بهم حتى تستوثق بينكم المعاملة والصدقة وتنشط عندك حركة البيع والشراء ، لتكون بعد مدة وجيزه ، غنياً ذا أموال كثيرة . واحذر أن تذكر لأحد فقرك أو صنعتك أو زوجتك ، أو عفريتك

الذى طارَ بكَ إلى هذه المدينة ، ولا تحمِلْ لشيءٍ هَمًّا ، فأنت رفيقى ،
وصديقى فى نَشأتى ، فقال معروف : أشكرُ لكَ فضلكَ ، وصديقَ
أخوتك .

وفى الصباح أعطاه ألفَ دينارٍ ، وأبرأ منه ذمته ، وأركبهُ بفلته ،
وجعلَ عبدًا فى خدمته ، ومصاحبته إلى سوقِ التجارِ الذى سبقهُ إليه ،
حتى يكون فى استقبالهِ ، عند قدومه ، فلما وصلَ معروفُ إليهم ، كانَ
على من بينهم ، فما رآه حتى تقدَّم إليه ، وقبَّل يديه ، وقال :

أهلاً وسهلاً بالتاجرِ معروفِ صاحبِ الفضلِ والمعروفِ ، والتفتَ
إليهم قائلاً : جاءكم كبيرُ التجارِ فى مصرَ ، وصاحبُ الأموالِ الكثيرةِ
والتجارةِ الواسعةِ ، فى مصرَ وغيرها من البلادِ والأقطارِ الكبيرةِ ، كالهندِ
والسندِ وغيرها ، وله فى الكرمِ أيادٍ بيضاء ، وواقف لا يدانيه فيها
أحد ، فأنزِلوه بينكم منزلته ، مِن عَظيمِ تقديرِهِ واحترامِهِ ، وحسنِ
معاملته ، وعظيمِ ائتمانه ، والاطمئنانِ إليه ، وجعل على يَخلو بتاجرٍ بعدَ
تاجر ، فيخلعُ على معروفٍ من صفاتِ المدحِ ، ما يرفعُ قيمتهُ فى نظره ،
ويجعله محلَّ اطمئنانه وثقته ، ثم أخذ على يسألهُ أمامَ التجارِ عن أصنافِ
القماشِ ، فيُجيبُه بأن عنده منها شيئاً كثيراً ، — وكان على قد عرفه —
بالغالى منها والرخيص ، وحفظه كثيراً من أسمائها — حتى فهم الجالسون
أن معروفًا أوسعُ التجارِ مالا ، وأكبرُهم منزلةً وقدرًا ، وسأل أحدُ
التجارِ عليًا : هل مواطنك معروفٌ يستطيعُ أن يحملَ إلى هذه المدينة

ألفَ حملٍ من القماشِ « الفلاني » ؟ فقالَ عليّ : يَبْعَثُ بها من مخزَنِ واحدٍ من مخازِنِه ، دونَ أن يُحسَّ أَنه نقصَ منها شيء .

وبينما هم يتحدّثون إذ دخلَ عليهم شحاذٌ ، فهذا أعطاه نصفَ فضةٍ ، وهذا أعطاه أقلَّ من ذلك ، وهذا لم يعطه شيئاً ، ولكنَّ معروفًا قبضَ قبضةً من ذهبٍ ، وأعطاه إياها ، فدعا له بالبركة في ماله وانصرف ، وعجبَ التجَّارُ ودهشوا أن رأوا من معروفٍ هذا الكرمَ الذي لا مثيلَ له إلا عندَ الملوكِ ، وقالوا : لولا أَنه كثيرُ المالِ ما أسرفَ في جودِه ، وبالغَ في عطائه ، ثم دخلتْ عليهم امرأةٌ فقيرةٌ ، فكانَ حالُه معها حالَه مُع الشحاذِ من المبالغةِ في العطاءِ ، وبلغَ أمرُهم الفقراءَ فهبوا إليه سراعاً من كلِّ صَوْبٍ ، وجعلَ هوَ يعطيهم ولا يردُّ سائلاً ، حتى نفدَ ما معه من الألفِ دينارٍ ، ثم ضربَ كفًّا بكفٍّ قائلاً :

لا حولَ ولا قوَّةَ إلا بالله ۝

فسأله كبيرُ تجَّارِ هذه المدينة : مالكَ يا معروف ؟ فقال : لو علمتُ أن الفقراءَ هنا كثيرٌ ، لأحضرتُ معي خُرْجاً من ذهبٍ أوزعُه عليهم ، ولكن ماذا أفعلُ الآن إن جاءني فقيرٌ وسألني أن أعطيَه ؟ فقال : قلْ له : رزقَكَ اللهُ ، فقال : لم أعتدْ ذلكَ مدةَ حياتي ، وبوَدَّي أن أحصلَ على ألفِ دينارٍ أتصدقُ منها حتى تحضُرَ بضاعتِي ثم أردّها لمن أقرضنيها ، فقال سأقومُ بذلك ، وأرسلَ أحدَ أتباعِه فأحضَرها ، وأعطاهُ الألفَ دينارَ ، فصارَ يُعطي كلَّ من جاءه ، أو مر به من الفقراءِ . حتى دخلَ المسجدَ

لصلاة الظهر ، فنثر بقيّتها على الناس فيه ، وافت بذلك أنظار الناس إليه ، وأصبح معروف لسخائه العظيم موضع دهشة الناس والتجّار وعجبهم ، ثم أسرَّ إلى تاجر آخر وأخذ منه ألف دينار وتصدّق بها ، وعلى التاجر موطنه ، يرى ما يفعله ، وهو لا يستطيع أن يتكلم ، ولم يخرج من صلاة العصر حتى كان ما وزعه خمسة آلاف دينار ، وكان كلما اقترض ألف دينار قال لصاحبها : حتى تجيء بضاعتي مع رجالي وعبيدي ، فإن أردت ذهباً أو قماشاً أعطيتك ما تريد .

وفي المساء دعاه التاجر على ، ودعا التجّار إلى وليمة عنده في بيته ، فأجلسه في صدر المجلس وجعل حديثه يدور حول قماشه وبضاعته ، وأن لديه كثيراً منها ، وعما قريب تكون حاضرة . ولبث على هذه الحال عشرين يوماً ، كان قد اقترض فيها ستين ألف دينار ، ولم تحضر له بضاعة ، فضجّ التجّار بالشكوى ، وقالوا : إلى متى يأخذ معروف ذهب الناس ويوزعه على الفقراء ، ولم نجد له بضاعة حضرت ؟ وشكروا إلى موطنه على التاجر ، فقال لهم : اصبروا فإن بضاعته لا بدّ حاضرة في القريب العاجل ، ثم اختلّى بـمعروف وقال له :

ما هذه الأعمال يا معروف ؟ هل قلت لك « قر الخبز أو أحرقه » ؟ إن التجّار خافوا على أموالهم ، فمن أين تؤدى الدين ، وتعطيهم ستين ألف دينار وأنت لا تبيع ولا تشتري ؟ فقال معروف : ستون ألف دينار أو أكثر من ذلك لا خوف عليها ، فستجيب بضاعتي وإن شاءوا

أعطيتهم ذهباً أو فضة أو بضائع مما يشتهون، فقال عليّ: الله أكبر، وعلى هامانك؟ وهل لك بضاعة؟ وأنت في انتظارها؟ فقال: نعم، بضاعتي لا تجدُ مثلها عند أكبر تاجر، وهي عما قريب حاضرة، فقال عليّ: خسئت يا معروف، إذ تطمع في أن يصدقك من علمك القول، وذلك على وجه الخديعة، ومن هو أخبر الناس بك؟

فقال معروف: لا تكثر من الكلام، فلست بالفقير المدم، وإن بضاعتي عن قريب حاضرة، ومن له حاجة عندي أعطيته مثلها. وما أنا في حاجة إلى أحد منهم. فهاج عليّ من الغيظ وقال: لقد أسأت معي الأدب، فكيف لا تستحيي؟ وكيف تكذب على رجل يعرف كذبتك، كما تعرف نفسك؟ سترى ما أفعله بك.

فقال معروف: افعل ما بدا لك، وما على التجار إلا أن يصبروا حتى تأتيني بضاعتي، فتركه التاجر وقال في نفسه: لقد مدحت للتجار، وإن ذمته الآن كنت كذاباً. فسكت وهو لا يدري ماذا يفعل!

وجاءه التجار وقالوا له: هل كتبت صاحبك في الدنانير التي اقترصها منا ووزعها على الفقراء؟ قال لقد استجبت أن أكامه، لأن لي عنده ألف دينار أيضاً، على أنكم أعطيتهم الأموال من غير مشورتي، فليس لي ذنب معكم؛ وما عابكم إلا أن ترفعوا ظلامتكم إلى ملك المدينة، وفولوا: إن هذا الرجل الغريب حدّثنا، وأخذ أموالنا. فذهبوا إلى الملك، ودكروا له شكائهم.

وكان مما قالوه : وقد حيرنا أمرُ هذا الرجل ، فإن توزيعه الذهبَ على الفقراء بالحفنة ، يدلُّ على أنه غنيٌّ وأمواله كثيرة ، وإن تأخر بضاعته تلك المدة الطويلة ، يجعلنا نرتابُ في أمره . وقد أخذنا من اثنين ألفَ دينار ، ووزعها على الفقراء ، ووعدنا أن يردّها إلينا بعدَ حضورِ بضاعته أضمافاً مضاعفةً ، ولكنْ مضتْ مدةٌ طويلة ، ولم تحضرْ له بضاعة .

وكان هذا الملكُ أطمعَ من أشعب ، فقال لوزيرِهِ : لو لم يكنْ هذا التاجرُ صادقاً في وعده ، لما وزع هذه الأموال ، ولا بُدَّ أن تحضرَ بضاعته ، ويمتنعَ هؤلاء التجّارُ أموالاً مع أموالهم ، وأنا أحقُّ بهذه الأموال من هؤلاء التجّار . وأريدُ أن أقربَ هذا التاجرَ مني وأزوِّجَه ابنتي ، لأستوليَ على أمواله ، فأضعها إلى أموالِي ، فقال الوزير : لا تُصدِّقْ هذا التاجرَ ، فهو محتالٌ كذاب . خدعَ التجّارَ ، وأخذ أموالهم ، على أنْ له بضاعةٌ ، والحقيقة أنه لا يملكُ شيئاً .

فقال الملك : وماذا علينا لو امتحنّاهُ لنعرِفَ أهو صادقٌ أمْ كاذبٌ ؟ أهو منْ بيتِ غنيٍّ كثيرِ المال . أمْ هو فقيرٌ لا يعرفُ شيئاً من مظاهرِ الغنى وسعةِ النعمة ؟ فقال : وماذا تمتحنُّهُ ؟ فقال : أحضرهُ إلى مجلسي ، فإذا جلسَ أكرمتُه ، وأظهرتُ له عطفي ، وعرضتُ عليه جوهرَةً عندي في حجرِ البندوقة ، ثمَّها ألفُ دينار ، فإنْ عرفها كان صادقاً . وإنْ لم يعرفها فهو كذاب ، وأمرتُ بقتله ، حتّى يستريحَ الناسُ من شرِّه .

ولما حضرَ أكرمه الملك ، وأقبلَ عليه يحدثه ، فقال : يدعى التجّارُ

أَنْكَ أَخَذْتَ أَمْوَالَهُمْ .

فقال معروف : نعم أقترضوني ستين ألف دينار ، وسأردّها إليهم ومعهما مثلها أو أكثر ، عند ما تحضر بضاعتي ، ولهم على فضل عظيم ، لأنهم ييئسوا وجهي أمام الفقراء ، لهذا فهم يستحقون عندي أضعاف أموالهم . ذهباً أو فضة أو بضاعة ، فناولته الملك الجوهرة وقال : ما هذه ؟ وما قيمتها فضة ط عليها بإبهامه وسبائته فكسرها .

فقال الملك : لماذا كسرت الجوهرة ؟ فقال : ما هذه جوهرة ، ولكنّها قطعة من المعدن قيمتها ألف دينار ، إن الجوهرة عندي لا قيمة لها إلا إذا كانت في حجم الجوزة أو البيضة ، وكان ثمنها سبعين ألف دينار فأكثر ، كيف تكون ملكاً وتسمى هذه جوهرة ؟ ولكنكم معذورون لأنكم فقراء ، فتجرك الطمع في نفس الملك وقال : هل عندك جواهر مما تقول ؟

فقال : عندي منها شيء كثير ، فقال أعطيني شيئاً منها ؟ فقال : أمّنحك كثيراً ومن غير ثمن ، ولكن بعد أن تحضر بضاعتي ، ففرح الملك وتأكد صدق التاجر في نفسه ، وأمر التجار أن يصبروا حتى تحضر بضاعته ، وبعد ذلك يأتون إليه ، ويأخذون منه أموالهم .

وأقبل الملك على وزيره وأمره أن يؤثف قلب هذا التاجر ، ويحبب إليه المقام عنده ، وأن يتزوج ابنته ، ليغنم أمواله وبضاعته — وكان الوزير قد خطب ابنة الملك لنفسه ، فأبت أن تزوجه .

فقال : لا أزالُ أعتقدُ أن هذا الرجلَ كذابٌ ، وستضيعُ ابنتُك ، وتزوجُها رجلاً فقيراً محتملاً ، فقال الملك : أأنتَ خطبتَ ابنتيَ لنفسِكَ فأبْتَ ، تحاولُ أن تففلَ في وجهِها أبوابَ الزواج ، حتى تبورَ وتكونَ لكِ في النهاية : خيرٌ لكِ ألا تذكرَ لي هذا التاجرَ بسوءٍ أبداً ، فقد عرفتُ أنكِ لا تُحبُّ الخيرَ لي ولا لبنتي ، كيفَ يكونُ كذاباً وقد عرفَ الجوهرةَ وثمنَها ، وكانت في نظره حقيرةً بالنسبة إلى ما عنده من الجواهر ؟ إنه إن تزوجَ ابنتيَ وأعجبته جمالُها ، أسبغَ عليها من ماله وجواهره شيئاً كثيراً ، ويظهرُ لي أنكِ لا تحبُّ لابنتيَ من هذه الخيراتِ شيئاً . فسكتَ الوريثُ وقال في نفسه : وما صرَكَ أن تُغريَ الكلابَ بالبقَر ؟ ثم أقبلَ على التاجرِ معروفٍ وقال له : إن الملكَ أحبكَ ويريدُ أن يزوجهَ ابنته ، وهى من الحسنِ والجمالِ والأدبِ فيما لا تجدُه في بنتِ مَلِكٍ من المُلوكِ ، فما رأيك ؟

فقال معروف : لا بأسَ ، ولكنْ بعد أن تحضرَ بضاعتى ، حتى أدفعَ صداقَها ، وأوزعَ كثيراً من الهدايا ، ولن أقبلَ ذلكَ حتى أدفعَ لها خمسة آلاف كيسٍ مَهراً ، وأتصدق على الفقراء بألف كيسٍ ليلةَ زفافِها ، وأمنح ألف كيسٍ لمن يحضرون هذا الزفافَ ، وألف كيسٍ للعساكرَ ، ومائة جوهرةٍ للملكة صديحة الزفاف ، ومائة جوهرةٍ للجواري والخدم ، وأكسو ألف عريانٍ أفعلُ كلَّ أولئك تعظيماً للعروسِ وبِيتِ الملكِ ، ولا أستطيعُ أن أقومَ بشيءٍ من هذا إلا إذا جاءت البضاعة ،

فنقلَ الوزير كلَّ هذا الحديث إلى الملك ، فقال له : كيف تقول عنه بعدَ هذا إنه كذاب ؟

فقال الوزير : ولا أزالُ أقولُها ، ولا أُعيدُ عنها ، فوبَّخه الملك وقال : إن لم تكفَّ عن ذلك القول قتلتك ، فارجعْ إليه ، وأحضره لي ، ولا دخلَ لكَ بيننا بعدَ ذلك ، فأحضره الوزير ، واستقبله الملكُ بالبشرِ والسرور ، وقال :

لا تَعْتَذِرْ بإبطاء المضاعة ، فعندك خزانتي تحت تصرفك ، فأنفق منها ما تشاء من غير حساب ، وسأصبرُ عليكَ حتى تأتي بضاعتك .
وحيثُ يكونُ المالُ جميعه مالكَ ومالَ زوجك .

وأحضرَ شيخَ الإسلام ، وأبرمَ عقدَ الزواج ، وأخذَ في إعدادِ العدة لإقامة الأفراح ، فنُشِرتْ أعلامُ الزينة ، ودقت الطبول ، وغرّدت المزامير ، وصُفّت الموائد ، وحَفَلت الملاعب بالمتفرجين .

وجلسَ معروف على كرسيه ، وجعلَ يُعطى اللاعبين ، ويُحسنُ إلى الفقراء والمساكين ، وخازنُ الملكِ يأتيه بالذهب والفضة . كلما وزع ما أخذه ، والوزيرُ يرى كل هدا ، وصدره يتقدُّ غيظاً ، ويودُّ أن يتكلمَ ولكنه يُخافُ الملكَ أن يضره ، فقالَ إلى معروفٍ وأسرَّ إليه قائلاً :

أما كفالكَ أموالُ التجار التي أصعقتها ؟ ألم يأنَ لكَ أن تكفَّ عن خِداعِ الناس ؟ لقد ألقيتَ بنفسك إلى التهلكة ، لأنك خدعتَ الملكَ ،

وَأَضَعْتَ مَالَهُ ، وَسَوْفَ يَحُلُّ بِكَ الْهَلَاكُ ، إِذَا بَانَ كَذِبُكَ .
فقال معروف : وما شأنك أنت الآن ؟ ! وسأردُّ إلى الملك والتجار

أموالهم إذا حضرت بضاعتي ، ويقولُ في نفسه :
ليكن ما يكون ، فكلُّ شيءٍ قُدر ، فما عنه مفرّ ، ولبتَ الفرحُ
أربعين يوماً ، وفي اليوم الحادي والأربعين زُفت ابنةُ الملكِ إلى زوجها
معروف : في حفلٍ جمع الأمراء والولاة والوزراء والجنود والقضاة ،
والأعيان والوجهاء ، وجمهرةٌ عظيمةٌ من الأغنياء والفقراء .

فلما دخلَ على عروسه وجدها في ثيابٍ حريريةٍ بيضاء ، وقد جلستُ
على سريرها كأنها البدرُ في السماء ، ونجومُ اللَّيْلِ فوق رأسها يتجاوبنَ
بالأضواء ، تجلسُ على كرسىٍّ من الكراسي المصنوفة ، وأطرق إضاءةً
طويلة ، ثم رفعَ رأسه ، وجعلَ يقلبُ كفيه وهو يقول :

لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله ...

فقالت العروس : سلمتَ من كلِّ شرٍّ وعوفيت ، ماذا أحزنَكَ ؟
فقال معروف : كيف لا أحزن وقد وضعتُ والدك في أخرج
المواقف

فقالت : وكيف ذلك وقد روجك ابنته . وفتح لك أبواب خزائنه ؟ !
فقال : ذلك سببُ حزني ، فقد أَدخاني بِكَ قَبْلَ أَنْ نَأْتِيَ بِضَاعَتِي ،
وكانَ بَوْدِي أَنْ يَكُونَ مَعِيَ فِي لَيْلَةِ زَفَاكَ مِائَةُ جَوْهَرَةٍ ، أَهْبَاهُا لُجُورِيكَ
لكلِّ جاريةٍ جَوْهَرَةٍ ، تَذْكُرُكِ بِهَا كُلِّ سَاعَةٍ .

فتقول : منحنى هذه الجوهرة سيدى ، ليلة دخوله بسيدتى ، وذلك تعظيماً لمقامك ، وتشريفاً لمنزلك ، فإنى لا أفصرُ فى بذلِ الجواهرِ الثمينة ، إذ أملك منها عدداً وفيراً .

فقالت : لا تعكر صفوك ، ولا تشغلُ بالاك ، فدى إكرام الجوارى واسعُ أمامك . وأما أنا فإنى فرحة بك . وأما الخواهرُ فإذا جاءت البضاعةُ أخذتُ منها القدرَ الذى تقرّ به عينُك ، فقم الآن واطرح عن نفسك كل همٍّ وغمٍّ ، واجعلْ هذه الليلةَ فرحةً . رحّةً ، باجتماعنا على بساطِ الأنسِ والألفة ، فانفلت من قبودِ همٍّ ، وجلسَ إليهما جلسة هنيئةً باسمّة ضاحكة ، وانتقضتْ تلكَ الليلة . على هذه الحالة ، وقد وقع بينهما ما لا يتدارك .

وفى الصباح استحمّ ولبسَ حلةً ملوكيةً ، وذهبَ إلى إيوانِ الملكِ ، فقبولَ بالإعزازِ والحفاوة والإكرام ، وأقبلَ عليه الوزراء والكبراء يهنئونه ، ويدعونَ له بالرفاء والبنين ، وفى أثناء ذلك يعطى ويهب ، حللاً وذهباً ونخضة ، كلٌّ امرئٍ على قدره ومكانته ، وكلما نفدَ ما فى يده أمدّه خازنُ الملكِ بما فى خزائنه ، حتى أوشكتُ أن ينفدَ ما فيها .

واتهزأ الخازنُ فرصة غياب معروف وقال للملك ، وكان وزيرُهُ يجانبه :

أيأذنُ لى الملكُ أن أخبره بشيءٍ ، إن أنا كتمته كنتُ مقصراً ومُلوماً .
فأذنَ له فقال :

إن الخزانة أوشكت أن ينفد ما لها ، وبعد أيام قلائل ، لا نجد فيها درهما ، فالتفت إلى الوزير وقال :

إن بضاعة معروفٍ نسيى لم نسمع عنها خبراً ، ولم نجد لها أثراً ، ولا ندرى لماذا أبطأت وتأخر حضورها ؟
فضحك الوزير وقال :

عافاك الله ، إنك مخدوعٌ بقول هذا الكذاب ، وهو رجلٌ فقيرٌ لا يملك شيئاً ، وقد غررك فعله . فوثقت بقوله ، حتى أتلّف مالك ، وتزوج ابنتك من غير شيء ، وقد نصحت لك من قبل ، فلم تقبل نصحي ، ولا أعرف سبباً يجعلك تسكت عنه . حتى الآن .

فقال الملك : وماذا ترى أن نفعله ، لمعرفة حقيقة أمره ؟

فقال الوزير : يا ملك الزمان ، لا يستطيع أن يطلع على سرّ الرجل إلا زوجته ، فأرسله إلى ابنتك لأحدثها من وراء ستار ، وأعلمها كيف تطلع على سرّه .

فجاءت إلى حجرة الجلوس ، وجالست على كرسيّ قوائمه مطعّمة بالذهب والفضة ، خلف ستارة حريرية ، وكان حضورها في غيبة زوجها .
فقالت : ما تريد يا أباي ؟

فقال : أريد أن تكلمني وزيرى .

فقالت : وما تريد أيها الوزير ؟

فقال : اعلمى يا سيدتى أن زوجك أتلّف مال أهلك ، وتزوجك من

غير شيء، وهو لا يزالُ يعدُّنا بحضورِ بضاعته من حين إلى حين، وقد طالَ علينا أمدُ انتظارها، ولم نسمعَ عنها شيئاً، حتى ساورنا الشكُّ في قوله ووعده، وأريدُ أن تقولَ لنا ما عرفته عنه في هذه المدة .

فقلت : شأني شأنكم، وهو لا يزالُ يعدُّني ويُمنيَّني، ولكني لم أجدُ بضاعة، ولا جواهرَ ولا ذهباً ولا فضة .

فقال : هل تقدرينَ الليلة أن تتحدثي إليهِ، وتتودّدي له، حتى يزيدَ أنسُهُ بك، واطمئنائه إليك، ثم تقولِ له :

إني أنا زوجُك المخلصة، وشريكُك في البسمة والغضبة، أن أفرط في جنبك، وأن أفكرَ في غيرك، فأخبرني عن حقيقةِ بضاعتك وأمرِك، حتى أدبرَ لك ما يحميك ويحفظُك، ولا تزالين به، حتى يعترفَ لك بالحقيقة، وبعد ذلك تخبرين والدك .

فقلت : سمعاً وطاعة، وسأعرفُ كيف أطلعُ على باطنِ أمره .

ولما دخلَ زوجها معروفٌ عليها بعد العشاء حسبَ عادته، أخذتْ تحادثُهُ . وتضاحكُهُ، وتُريه أنها من نفسها، كنفسيهِ من جسديهِ، فاطمأن كل الاطمئنان، وهيأتُهُ هي أن ييُوحَ بكل ما كان، ثم قالت :

كم تدعى أنك تاجرٌ كبير، وأن بضاعتك في طريقها إلى المدينة، ولكنها تأخرت حتى أيقظت في النفوس القلقَ من أجلها، واليأسَ منها، وحيلةُ الكذاب لا بقاء لها ولا دوام، وأخشى أن يظهرَ أمرُك قبل أن نعدَّ له عدته، فيغضبَ عليك أبي، ويُشمتَ فيك أعداءك وأعدائي،

ولا تخش شيئاً إن لم تكن لك بضاعة حاضرة ، فسأدبر أمرك تدير مخلصاً
تحبك وتبقى عليك .

فقال : اسمعى قول الحق ، وبعد ذلك افعلى بى ما تشائين .

فقالت : إن كان صدقاً فعاقبته النجاة ، فقال : لم أكن تاجراً ، ولم
تكن لى بضاعة ، ولكنى كنت فى مصر إسكافياً ، ولى زوجة تسمى
فاطمة العرّة وجعل يقصّ عليها تاريخ حياته ، إلى جلسة الاعتراف
هذه . فضحكت وقالت : ما أمهرك فى الخديعة والكذب !! فقال :
يسر الله لك سبيل حمايتى ، وستر عيى ، ودفع الهم عنى ، فقالت :
إنك غششت أبى حتى ضيعت ماله ، وتزوجت ابنته ، دون شىء دفعته
وله وزير لا ينفك يذكرك بسوء ويقول : إنك كذاب ، وأبى لا يسمع
له قولاً ، وإذا عرف أبى حقيقة أمرك ، قتلَكَ أشنع قتلة ، وكان هذا
القتل لى سببة ومعرّة ، بما زوجت بغيرك ، وأنا قد أحببتك وأخلصت
إليك ، ولا أبغى أحداً سواك ، ومن الخلق الكريم ألا أفرط فيك ،
وأن أدفع عنك خطراً ينتظرُك ويأتىك . فقم الآن قبل أن يطلع النهار ،
والبس حلة مملوك من الممالك ، وخذ معك من مالى خمسين ألف دينار ،
واذهب إلى بلدة لا ينفذ فيها حكم أبى ، واتجر هناك بهذا المال ،
وأرسل إلى من حين إلى حين رسولا ، يعرفنى حالتك ، وأبعثه إليك
بما تحتاج من مال ، فإن مات أبى أحضرتك ، وإن مت أنا أو مت
أنت فإلى رحمة الله ، والقيامة تجمعنا ، وأستودعك الله ، فأسرِعْ

واخرج من المدينة خفية ، قبل أن يأتى الصباح ، ويظهر الأمر ، ولا
يستطيع دفع العاقبة .

لبس معروف حلة مملوك ، وركب جواداً وسار ليلاً ، فظن كل
من رآه أنه من المالك ، وأنه مُسافر لقضاء حاجةٍ لسيده المليك ، فلما طلع
النهارُ أحصرها أبوها في حجرة الجلوس خلف الستارة ، وكان وزيره
معه ، فسألها أبوها : ماذا وقفت عليه الليلة من أمر زوجك ؟

ف قالت : سوّد الله وجهَ وزيرك ، فقد أراد أن يُسوّد وجهي أمام
زوجي . فقال : وكيف ذلك يا بنتي ؟

ف قالت : دخل على زوجي ليلة هذا اليوم ، التي تنتهى بطلوع فجره ،
أو طلوع شمسهِ ، وقبل أن أبدأ بالكلام جاءه « فرجُ المملوك ومعه
كتاب » وقال : إن عشرة ممالك بباب القصر ، وقالوا : قُبِلَ لنا يدُ
سيدنا معروف التاجر ، وأعطيه هذا الكتاب ، وبلغه أننا من ممالكه ،
جئنا مع بضاعته ، وقد بلغنا أنه تزوج بنت الملك ، فجئنا لنخبره بما حدث
لنا في الطريق ، فأخذت الكتاب وقرأت فيه :

« من الممالك الخمسة إلى حضرة سيدنا التاجر معروف : نخبرك
أنه بعد أن تركتنا ، طلع العرب علينا ، وعددهم ألفان ، ووقع بيننا
وبينهم حربٌ شديدة دامت ثلاثين يوماً ، وهذا سبب تأخرنا ؛ وقد
نهبوا من بضاعتنا مائتي حمل ، وقتلوا منا خمسين مملوكاً » . فقال زوجي :
خيبتهم الله ، ما كان لهم أن يحزنوا أو يتأخروا ، من أجل مائتي حملٍ

من البضاعة نُهبت أو ضاعت ، فإن هذا القدر لا ينقص من مالى شيئاً ،
فلأذهب الآن لاستمعجالمهم ، وسأترك للعرب الأحمال التى نهبوها ،
كأنى تصدقت بها عليهم .

ثم نزل مُبْتَسِماً ضاحكاً ، كأن لم يُنهبْ شىء من ماله ، ولم يُقتلْ
أحدٌ من مماليكه . ونظرتُ إليه من شباكِ القصر ، فرأيت عشرة مماليك
كأنهم أقمار ، وعليهم حُللٌ قيمة كل واحدة ألف دينار . وتوجه معهم
إلى حيث بضاعته ومماليكه ، وحمدتُ الله الذى حفظ لسانى ، فلم أتكلم
بشىء مما أشار به وزيرك ، الذى لم يسكت عن الوشاية بزواجى ،
ووصفه بما لا يليق به . وهذا ما كان فى الليلة الماضية .

فقال أبوها : يا بنتى ، ما شككت لحظةً فى صدق زوجك ، وإن
ماله كثير ، وسيأتينا به عن قريب ، وسننال منه خيراً عظيماً ، والتفت
إلى وزيره فوجّهه وقال : إياك أن تظنَّ بالناس ظنَّ السوء ؛ فلن يكون
ذلك إلا من حاقد حاسد . وانطلت على الوالد حيلة ابنته .

ركب معروف جواده ، وخرج إلى البرية ، وهو فى حيرة مظلمة ،
لا يدري فيها إلى أين يذهب . واستمر سائراً كالسكران إلى وقت
الظهيرة ، وكان على مقربة من بلدة صغيرة ، فرأى رجلاً يحرق فى أرضه ،
فأحب أن يذهب إليه ، لعله يجد عنده لقمة يطفى بها لهب جوعه فقال :
السلام عليكم ، فردّ الحراث عليه السلام ، وقال :
أهلاً ومرحباً ، هل أنت من ممالك السلطان ؟

فقال نعم ، فقال : لا بد أن تنزل عدى ضيفاً ، فقال ولكنى لا أرى
عندك طعاماً أطعمه ، فقال : خيرُ الله كثير ، والبلدةُ قريبةٌ منا ، فتفضل
وانتظرنى هما حتى أحضرَ غداءك ، وشيئاً يأكله جوادك .

فقال : ما دامتُ قريبةً منا ، فمن السهل أن أذهبَ إليها ، واشترى
من سوقها ما أشاء ، فقال : البلدةُ صغيرةٌ ، وليس فيها سوق ، ولا بيع
ولا شراء ، وأسألك بالله أن تجبرَ خاطرى . وشرقتُ بضيافتك ، وسأرجعُ
إليك من البلدة بسرعة ، فرضى معروف ونزل .

وذهب الفلاح إلى البلدة ، ليحضرَ الطعامَ وما يلزم للجواد ، فقال
معروف في نفسه : لقد شغلنا الفلاح عن عمله ، ومن المروءة أن أساعده ،
ثم قام إلى محراثه ، وجعل يحراثُ أرضه ، فعثرَ المحراثُ في شئٍ أمسكه ،
وجعلَ الثَّورَينِ لا يستطيعان جرَّه ، على الرغم من حثهما على السيرِ
وضربهما ، فبحثَ عن ذلك فوجدَه عالِقاً في الأرض بحلقةٍ من ذهب ،
فكشَفَ عنها التراب ، فرآها وسطَ حجرٍ من المرمر ، كأنه قاعدةُ
الطاحونة ، فنزعه من موضعه ، فوجدَ من تحته سُلماً ، فنزل فيه ، وانتهى
منه إلى مكانٍ في سعةِ الحمام . له أربعةُ أرواين ، ووجدَ بالإيوانِ الأولِ
ذهباً ، والثانى لؤلؤاً وزُرداً ومرجاناً ، والثالثُ ياقوتاً ، والرابعُ ألماساً
ومعادنَ نفسية ، وجواهرَ مختلفة ، ووجدَ في صدر هذا المكان صندوقاً
من البلور ، مملوءاً بالجواهرِ اليتيمة ، وكلُّ جوهرةٍ منه في حجمِ الموزة ،
وفوقه علبةٌ صغيرةٌ من ذهبٍ في حجمِ الليمونة ، ففرحَ معروف وفتحَ العلبةَ

الصغيرة الذهبية ، فوجدَ فيها خاتماً ذهبياً عليه كتابةٌ وطلاسم كأرجل النملِ المبعثرة ، فعركَ الخاتمَ بأصبعه ، فإذا بمخلوقٍ مائلٍ أمامه يقول :
 لبيك يا سيدي لبيك . فمرُّ تَطَعْ ، واطلبْ تَعَطَّ ، فإن أردتَ منفتحَ مدينةٍ ، أو تخريبَ بلدةٍ ، أو حفرَ نهرٍ ، أو نقلَ جبلٍ ، أو قتلَ ملكٍ ، أو غيرَ ذلكَ فعلناه بإذنِ الملكِ الجبار ، خالقِ الليل والنهار ، الذي بيده كلُّ شيءٍ ، وهو الواحدُ القهار .

فقال معروف : يا مخلوقَ ربي ، ومن أنت ؟

فقال : أنا خادمُ هذا الخاتمِ الذي في يدِكَ ، أقومُ بخدمةٍ من يملكه ، والاثمارِ بأمره ، مهما يكن شأنه ، فإنني سلطانٌ من الجانِّ ، وعدةٌ عسكريّ اثنتانِ وسبعونَ قبيلةً ، وعدةٌ كل قبيلةٍ منها اثنتانِ وسبعونَ ألفاً ، وكل واحدٍ يحكم ألفاً وكل ماردٍ يحكم ألفَ عَوْنٍ ، وكل عونٍ يحكم ألفَ شيطانٍ ، وكل شيطانٍ يحكم ألفَ جنٍّ ، وهؤلاء جميعُهُم في طاعتي ، ولا يقدرُونَ على مخالفتي ، وقد حُبِسْتُ لخدمةِ هذا الخاتمِ ، وطاعةٍ من يملكه ، ولن أقدرَ على مخالفةِ أمره ، وها أنتَ قد ملكته ، فأصبحتُ في طاعتك ، فرني بما تشاء ، وإذا احتجتَ إليَّ في أي وقتٍ فادعك الخاتمَ بأصبعك ، تجِدني بين يديك ، وإياك ، أن تدعكه مرتين متواليتين في لحظةٍ واحدةٍ ، فإنك إن فعلتَ ذلكَ أحرقَتني ، وخسِرْتَ خدمتي ، وندمتَ حيثُ لا ينفعُ الندمُ ، فقال معروف : وما اسمُك ؟
 فقال اسمي أبو السعادات .



فقال معروف : يا أبا السعادات ، وما هذا المكان ؟ ومن حبسك
لخدمة هذا الخاتم ؟ فقال : هذا كنزُ شداد بن عاد ، الذي عمر إرم ذات
العماد ، التي لم يُخلقْ مثلُها في البلاد ، وهذا خاتمُها ، وكنْتُ خادمَها في
حياته ، فأبَحَّ كُلُّ هدامٍ نصيبك ،

فقال معروف : أخرج يا أبا السعادات ما في هذا الكنز على وجه
الأرض ، ولا تبقِ منه شيئاً ، فأشار أبو السعادات إلى الأرض بيده .
فانشقتُ وغاصَ فيها ، ثم رجعَ بعدَ مدةٍ قصيرة ، ومعه غلمانٌ صغارٌ
حسان ، فجعلوا ينقلون ما في الكنز حتى لم يبقَ فيه شيء .

ثم طلبَ معروفُ إليه أن يضع كل شيءٍ أخرجَه ، في صناديقٍ تحملها
بغال ، فزَعَقَ أبو السعادات زعقةً قويةً ، فجاءه ثمانمائة عون ، وأمر أن
ينقلبَ بعضهم مماليك لا نظيرَ لهم في الجبال عند أي ملكٍ من ملوك
الدنيا . ويتحول الآخرون إلى بغالٍ أقوىاء ، فكانوا في لمح البصر كما أمر ،
ثم صاحَ صيحةً كان كثيرٌ من أعوانه في أثرها بين يديه ، فأمرهم
أن يتحولَ بعضُهم إلى خيلٍ - سُرَّجُها من ذهب ، وأن يحضروا صناديق
ويصعوا فيها جميع ما أخرجَ من الكنز . ففعلوا ما أمرَ به .

وفال معروف : أريدُ أحمالاً من نفيس القماش ، فقال أبو السعادات :
أتريد قماشاً مبصرياً ، أم شامياً ، أم أعجمياً ، أم روميّاً ؟

فقال : من كلِّ صنفٍ مائةَ حمل ، على مائةِ بَغل ، فقال : أعطني مهلةً
لإحضار ذلك ، فقال : كم من الزمن تحتاج ؟ فقال : لا يأتي صباحُ الغدِ

حتى يكون ما أردت ، فأمره أن ينصب له خيمةً يستريح فيها حتى صباح الغد ، فنصب الخيمة ، وصفت فيها الكراسي ، ووضع في وسطها السباط ، ومن حولها الممالك الحسان

ثم قال أبو السعادات المعروف : استرح في هذه الخيمة ، والممالك في خدمتك ، حتى أقوم بإحضار القماش الذي طلبت ، وانصرف إلى سبيله ، وبينما معروف جالس في خيمته إذ أقبل الفلاح ، يحمل قصعة من العدس ، ومخللة مملوءة شميرًا ، فدهش أن رأى خيمة مضروبة ، ومن حولها ممالك قد وقفوا في خشوع ، وظن أن الملك نزل بهذا المكان ، فقال في نفسه :

ليتني ذبحت دجاجتين لأقدمهما إلى السلطان ، وهم أن يرجع إلى بيته ليدبحهما ، فرآه معروف وناداه ، وأمر الممالك أن يحضره إليه ، فجاءوا به ، وبقصعة عدسه ومخللاته ، وسأله معروف عنهما .

فقال : هذا العدس غداؤك ، وهذا الشمير لحصانك ، ولا تؤاخذني بهذا التقصير ، فلو عامت أن الملك سيشف حقلي لأحضرت له دجاجتين ، وتشرفت بضيافته ضيافة تليق بمقامه ، فقال معروف . اطمن فإن الملك لم يحن ، وإنما أنا نسيبه . وخرجت من قصره غاضبًا ، فبعث إلى ما ترى من الممالك وصالحوني ، وأحب الآن أن أعود إلى المدينة ، ولكنك قد أكرمتني ، وهيات لي هذا الطعام الذي أحضرته ، ولا بد أن أكرمك فلا آكل إلا من عدسك ، ولك أنت هذا الطعام الذي جاء به الممالك ،

فكل منه ما تشاء، وأكل معروف عدساً حتى شبع، وملاً الفلاح بطنه من ألوان الأطعمة الفاخرة، ثم ملاً معروف قصعة الفلاح ذهباً وقال له :

إذهب بها إلى بيتك، ثم تعال في المدينة، لأزيد في إكرامك .
حمل الفلاح قصعته، وساق ثيرانه أمامه، ورجع إلى بلده، وهو يعتقد أن معروفًا نسببُ الملك، وبات معروف في الخيمة، في لذة وسرّة؛ إذ جىء له بمرائس الكنوز، وقضين وقتاً طويلاً في الغناء والرقص والضرب على الآلات الموسيقية .

وانكشف صباح الغد عن سبعائة بغل تحمل أقشة، وحوأها غلمانٌ وخدم، يتقدم هؤلاء أبو السعادات على بغلته، ومعه تخت مرصع بالجواهر والذهب . فلما وصل الخيمة حياً معروفًا وقال : أحضرت ما طلبت، وهذا تخت فيه حلة ملوكية لامثيل لها عند أحد، فالبسها وورنا بما تريد .

فقال : سأكتب كتاباً تذهب به إلى الملك في مدينة خيتان الختن، وتناولوه إياه وأنت في صورة ساع أنيس .

فقال : سمعاً وطاعة، وكان الملك جالساً هو ووزيرُه ويقول : إن قلبي مع نسيبي، وأخاف أن يقتله العرب . ولو عرفت أين ذهب لتبعته بمجندي، ولو كنت أعلم ما تركته يسير وحده، وأرجو أن يكون له من كرمه، وحبّه الخير للناس شفيع عند الله؟ فيحميه من كل مكروه،

فقال الوزير : لطفَ الله بك ، ونجّاك من شرِّ ما تعتقدُ في نسيبك ، لقد عرفَ أننا انتبهنا إليه ، تخاف الفضيحةَ وفرَّ هارباً ، وما هو عندى إلا كذاب ابن كذاب ، يستحقُّ كلَّ نكالٍ وعذاب ، وبينما هو كذلك إذ دخلَ الحاجب فقال : بالباب رسولٌ إلى سيدى الملك ومعه كتاب ، فأمر أن يأتية به ، ولما دخلَ الرسولُ حيّاً الملك ودعا له بدوامِ اليَمَنِ والنَّعمة ، سألهُ الملكُ : مَنْ أنتَ ؟ وما حاجتُك ؟

فقال : ساعٍ من عندِ نسيبك ، أمرنى أن أعطيك كتابه هذا ، فقرأه الملكُ فإذا فيه : « بعدَ السلامِ على الملكِ العزيز ، قد جاءت البضاعة ، فقا بلنى بِجُنْدِكَ على أبوابِ المدينة ، ففرحَ وقال للساعى : سلِّمْ على سيدك ، وأخبره أنى سأستقبلُه بِجُنُودى ، على أبوابِ مَدِينَتى ، وأذنَ له أن ينصرف ، ثم التفت إلى وزيره .

وقال : سوّدَ الله وجهك ، كم أسأت إلى نسيبى ، ووصفته بالكذب وقُبِحَ الخديعة ، فكنتَ بذلك غاشّاً ظلوماً ، نخجلُ الوزير وقال : ما حملنى على هذا القولِ إلا طولُ غيبةِ البضاعة ، وحرصى على الملك أن تضيعَ أمواله .

فقال الملك : الحمد لله ، فقد حضرت البضاعة ، وسيكون لى فيها خيرُ العوض ، وأمر الملكُ فى الحال أن تزينَ المدينة بأعلامِها المرفرفة ، وغيرها من مَظاهِرِ البهجة والزينة ، وقامَ إلى بنته .

فقال : أبشرى ، فقد سَعدتُ أيامك ، وبارك الله لكِ فى زوجك ،

فقد بعثَ إلى كتابا يطلبُ فيه أن أقابله بجنودى ، وهو حاضرٌ ببضايعه ،
وأنا ذاهبُ الآن للقاءه ، وقد أمرتُ أن تأخذَ المدينةَ زُخْرُفَهَا وزِينَتَهَا ،
نقالت : الحمد لله الذى رَدَّه إلينا سَالِمًا .

ثم قالتُ فى نَفْسِهَا ، وهى فى أشدِّ حالاتِ العَجَبِ من أمرِ زوجها :
ما هذا ؟ أكان يسخرُ مِنى حينَ اعترفَ لى بفقره ، أم كان يختبرنى ؟ !!
ولكنَّ أحمدَ الله الذى وفَّقنى إلى الدفاعِ عنه ، وعدمِ التفريطِ فى جَنَبِهِ .

وكانَ على المصرىِّ قد فوجئَ بأن رأى المدينةَ لا بسَةِ حُللِ زِينَتِهَا ،
فسألَ عن سَبَبِ ذلكَ فقيلَ له : إن ذلكَ أمرُ المليكِ احتفاءً بقُدُومِ نسيبه ،
وحُضورِ بضاعته ، فعجَّبَ عَجَبًا شَدِيدًا وقالَ فى نَفْسِهِ : لقد جاءَ معروفُ
إلى المدينةِ فقيرًا ، وسُلِّطَ على أموالِ التجارِ والمملكِ فضيَّعَ منها كثيرًا ،
فكيف ومن أين جاءت له هذه البضاعة ؟ لعلَّ بنتَ الملكِ دَبَّرَتْ له
أمرَها ، لتستُرَّ أمرَ زواجهما من غير أن يدفعَ لها مهرًا ، والحمدُ لله الذى
كَتَبَ لهما السُّرَّ والحمايةَ من المعرَّة ، وكانَ فرحُ التجارِ الذين أقرضوه
أموالهم عظيمًا إذ أشرقَ لهم الأملُ فى رَدِّها إليهم أضغافًا مُضاعِفَةً ، لسَخاءِ
معروفٍ وكرمِهِ ، ثم خرجَ الملكُ وجنوده لاستقبالِ نسيبه

أما أبو السعاداتِ فقد رجعَ إلى معروفٍ وأخبره أنه بلغَ الرسالة ،
وأن المليكَ أخذَ أهْبَتَهُ لاستقبالِهِ وسارَ معروفٌ بموكبِهِ وبضاعته ،
وأبو السعاداتِ وأتباعُهُ من حوله ، ومن حَوْلِ بضاعته ، حتى التقى بالملكِ
ومن مَعَهُ ، فرآه فى حِلَّةٍ ملوكيةٍ ، لم يَرِ مِثْلَهَا على أَحَدٍ من الملوكِ ، فزادَ

يَقِينُهُ ، بما يَطْمَعُ فِيهِ مِنْ مَالٍ وَثَرَوَةٍ ، وَسَلَّمَ عَلَيْهِ هُوَ وَوُزَرَائِهِ ، وَكِبَرَاءُ دَوْلَتِهِ ، وَأَعْيَانُ مَدِينَتِهِ ، ثُمَّ صَاحَبُوهُ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَدَخَلَهَا فِي حَفْلٍ رَائِعٍ لَا نَظِيرَ لَهُ ، وَجَاءَ إِلَيْهِ التَّجَّارُ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ ، يَسْلَمُونَ عَلَيْهِ وَيَهْنِئُونَهُ ، وَأَسْرَّ عَلَى الْمَصْرِيِّ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ : كُنْتُ شَيْخَ الْكَذَّابِينَ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَكْرَمَكَ وَعَصَمَكَ ، فَجَعَلَكَ مِنَ الصَّاقِينَ ، لِأَنَّكَ صَبَرْتَ عَلَى أَذَى زَوْجِكَ ، وَأَسَامْتَ الْأَمْرَ إِلَى رَبِّكَ ، فَكُتِبَ لَكَ أَجْرُ الصَّابِرِينَ ، الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، فَضَحِكَ مَعْرُوفٌ وَقَالَ : إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ .

وَفِي قَصْرِ الْمَلِكِ أَمَرَ مَعْرُوفٌ أَنْ تُفَكَّ أَحْمَالُ الْقِمَاشِ ، وَأُرْسَلَ مِنْهَا إِلَى زَوْجِهِ ، لِتُوزَعَ عَلَى جَوَارِيهَا ، وَنَفَحَ التُّجَّارُ بِمَا يَسَاوِي أَضْعَافَ أَمْوَالِهِمُ الَّتِي اقْتَرَضُوهَا مِنْهُمْ وَمَنَحَ الْفُقَرَاءَ وَالْمَسَاكِينَ مِنْهَا قَدْرًا كَبِيرًا ، وَجَعَلَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِالْعَطَاءِ ، فِي كَرَمٍ وَسَخَاءٍ ، حَتَّى شَمَلَ الْقَرِيبَ وَالْبَعِيدَ ، ثُمَّ جَعَلَ الْبَاقِيَ مِنْ بَضَائِعِ وَجَوَاهِرِ ، وَذَهَبٍ وَفِضَّةٍ ، فِي خِزَانَةِ الْمَلِكِ ، وَقَامَ إِلَى زَوْجِهِ فِي مَقْصُورَتِهَا ، فَقَابَلَتْهُ فَرِحَةً صَاحِكَةً ، وَقَبِلَتْ يَدَهُ ، وَقَالَتْ : أَكُنْتُ تَهْرَأُ بِي أُمُّ تَحْتَبِرُنِي ، حِينَ أَخْبَرْتَنِي أَنَّكَ فَقِيرٌ هَارِبٌ مِنْ زَوْجِكَ ، أُمُّ مَاذَا كُنْتَ تَرِيدُ ؟

فَقَالَ : أَحْبَبْتُ أَنْ أَخْتَبِرَ إِخْلَاصَكَ لِي ، وَأَتَبَيَّنَ هَلْ رَغِبْتَ فِي زَوَاجِي مِنْ أَجْلِ ثَرَوَتِي وَمَالِي أَوْ مِنْ أَجْلِ ، فَعَرَفْتُ صِدْقَكَ وَوَفَاءَكَ ، وَأَنَّ مَتَاعَ الدُّنْيَا لَا قِيَمَةَ لَهُ فِي نَظَرِكَ ، وَذَلِكَ مَا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ الزَّوْجَةُ .

ثم اختلى في مكانٍ ودعك الخاتم فخر أبو السعادات ، فأمره أن يحضر لزوجهِ حلةً مُلوَكيةً ، وعقدًا به أربعونَ جوهرةً يتيمةً ، وكثيراً من الحليّ ، ففعلَ في الحال ، ودخلَ معروفٌ بكلِّ أولئك على زوجته ، ووصمه بينَ يديها ، فايضَ وجهها فرحاً ، وتألقَ سروراً ، ووجدتْ من بينِ الحليّ خلخالين من ذهبٍ مرصّعٍ بالجواهرِ ، ومن صنْعِ الكهنَةِ ، وأساورَ وأقراطاً ، لا تفي بشمئِها أموالُ أبيها ، فأشارتْ عليه أن تحفظَ الحلةَ إلى أوقاتِ المواسمِ والأعيادِ والحفلاتِ ، ولكنه أمرها أن تلبسَها كلما شاءتْ ، فعندهَ منها شيءٌ كثيرٌ ، ثم اختلى مرةً ثانية ودعك الخاتم وأمر خادمه أن يأتيه بمائةِ حلةٍ ومعهما حُلِيها ففعلَ ، ثم وزعها على جوارِي زوجته ، لكلِ جاريةٍ حلتها وحُلِيها ، وطارَ نبالُ هذا الذي فعله إلى الملكِ ، فأقبلَ فرحاً إلى ابنته ، وهنأها بزوجها وسعادتها به ثم ذهبَ إلى عرشه ، وأحضر وزيره وأخبره .

فقال الوزير : إن الذي رأيتهُ ، والذي أخبرتني به ، لا يُعقلُ أن يكونَ من تاجرٍ ، لأنَ التاجرَ مهما يحسنُ حفظه ، ويعظمَ ربحه ، فلنَ يحصلَ على هذه الأموالِ التي يخرجُ الحصولُ عليها عن طوقِ البشرِ ، ولا بدَّ أن يكونَ في الأمرِ شيءٌ لا نعلمُه ، وسرٌّ لا ندركُه ، فإن جمعتني بنسبك في بستانٍ ، وسقيتهُ كأسَ المدام ، استطعتُ حينئذٍ أن أعرفَ منه سرَّ هذه الحالِ ، فإن الخمرَ تذهبُ العقلَ ، وتفضحُ السرَّ ، وتجعلُ شاربها يُفضي بكلِّ شيءٍ في صدره . وأرى الوقوفَ على سرِّ هذه الحالِ

أمرأ واجبًا ، فإنني أخشى أن يطمع في ملكك ، ويحبب إليه الجنود والرعية ، بهذا الكرم الذى لا يجاريه فيه إنسان .

فقال الملك : ذلك حقٌ ، وجديرٌ بالعناية ، وباتامتفئين على هذا .

وفى الصباح جلس الملكُ ووزيرُهُ ينتظران خروجَ معروفٍ من حجرة نومه ، فجاء الخدمُ إليهما ، وعليهم آثارُ غمٍّ وغمٍّ عظيمين ، فسألهم الملكُ عما أصابهم .

فقالوا : أصبحنا فلم نجد ممالكك نسيبك ، ولا الدوابَّ التى كانت معهم ، وبحشنا فى كل مكانٍ فلم نعثُر على أثرٍ لهم ولها .

فقال : وكيف كان ذلك ؟ ! ألفُ دابةٍ وخمسمائة مملوك وغيرهم من الخدم يهربون من حيث لا تشعرون ؟ !

فقالوا : لم نعرف كيف هربوا ، ولم نخالف نظامنا وعادتنا فى الحراسة ، فقال : انتظروا خروجَ سيدكم معروف ، وبلغوه الخبر ، فاعلّ له فى ذلك مخرجًا ، ولما أخبروه ضحك وقال : لا تغمّوا ولا تهتمّوا ، وامضوا إلى سبيلكم ، فأمرهم علينا يسير ، وخيرُ الله علينا كثير ، فبلغوا الملكَ ما قال معروف ، وعدمَ اهتمامه ، كأن لم يضع من ماله شئ ، فالتفت إلى وزيره . وقال :

لقد احترتُ فى أمر هذا الرجل ، الذى ليس للمال عنده قيمة ، وكان يده مفاتيح كنوز الأرض ، فما رأيك فيه ؟

فقال الوزير : نفَّذْ ما أشرتُ به عليك ، فإنَّ الحُرَّ كفيلةٌ بأنَّ تجعله يَبُوحَ بِسِرِّهِ .

وحضَرَ إليهما معروفٌ وهو فرحٌ كأنه لم يخسر شيئاً ، فتحدَّثوا قليلاً ، ثم عرض عليه الملك أن يذهبوا سَوِيًّا إلى استانٍ من بساتين الملك للزَّهَةِ ، فوافق على ذلك .

وجلسوا في بستانٍ أنهارُهُ جاريةٌ ، وأشجارُهُ مُخضرةٌ باسقةٌ ، وفاكهَتُهُ كثيرةٌ متنوعةٌ ، وأطيَّارُهُ مغرَّدةٌ ، ونسيمه عليلٌ ، وأزهارُهُ تملأُ الجَوَّ عُبُيراً ، وأخذوا يتحدَّثون ، والوزير يعرضُ الطريفَ من النوادر ، حتى جاء وقتُ الظهيرة ، فوضِعَ الطعامُ أمامهم ، وجعلوا يأكلون ، ثم ناولَ الوزيرُ معروفًا كأساً من الحُرِّ ، فقال له : وما هذا الشرابُ .

فقال الوزيرُ : ذلك شرابٌ ولبسٌ خمرًا ، مزيَّتُهُ أَنَّهُ ينعشُ النفوسَ ، ويطرُدُ عن القابِ العبوسَ ، فسرَّبَ السكَّاسُ الأولى ، فغاب عن صوابه ، وفقد رشده ، لأنَّه لم يكن من قبل قد شربها ، ولهذا كان سريعَ التأثرِ بقليلِها ، وحينئذٍ سأله الوزيرُ : عجبتُنا لَغنَّاكَ العظيمُ ، وكرمِكَ العميمُ ، فمن أينَ جاءَتْكَ هذه الأموالُ والجواهرُ ، التي لا يستطيع الحصولُ عليها من التجارةِ بَشَرًا ، ولا نَجْدُها في عَيْنِ مَلِكٍ أَنثَى أو ذكرٍ ؟ !

فقال معروفٌ : لستُ تاجرًا ، ولا من أبناءِ الملوكِ ، وإنما أنا إسكافيٌّ ، وزوجتي فاطمة العُمرَةُ ، وأخذَ يَتْلُو عليه حكايتَه حتى النهاية .

فقال الوزيرُ : أتحبُّ أن ترينا هذا الخاتمَ ؟

فَنَزَعَهُ مِنْ يَدِهِ وَقَالَ : خَذُوا ، وَانْظُرُوا ، وَتَأَمَّلُوا ، فَأَخَذَهُ الْوَزِيرُ
وَقَالَ : وَهَلْ إِذَا دَعَاكَ أَنَا يَحْضُرُ خَادِمُهُ ، فَقَالَ : ادْعُكَ حَتَّى يَحْضُرَ ،
ثُمَّ تَرَى ، فَدَعَا الْوَزِيرُ : فَإِذَا بَعْنُ يَقُولُ : لَبِيكَ ، لَبِيكَ يَا سَيِّدِي ، فَاطْلُبْ
تَعْطَى ، وَمُرَّ تَطْعَمُ ، فَهَمَّا تَطْلُبُ أَفْعَلُ ، مِنْ غَيْرِ إِبْطَاءٍ ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَحْمَلَ
مَعْرُوفًا إِلَى أَرْضِ قَفَرَاءَ ، لَا نَبَاتَ فِيهَا وَلَا مَاءَ ، حَتَّى يَهْلِكَ الْجُوعُ
وَالْعَطَشُ ، فَحَمَلَهُ أَبُو السَّعَادَاتِ وَطَارَ بِهِ .

فَقَالَ مَعْرُوفٌ لَهُ : إِلَى أَيْنَ أَنْتَ ذَاهِبٌ بُيْ ؟

فَقَالَ : إِلَى أَرْضِ قَفَرَاءَ ، لَا نَبَاتَ فِيهَا وَلَا مَاءَ ، وَلَوْلَا خِيفَةُ رَبِّي
لَأَلْقَيْتُكَ الْآنَ إِلَى الْأَرْضِ فَتَمُوتُ مَوْتَةَ أَلِيمَةٍ مُفْزَعَةٍ ، لِأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ هَذَا
خَتَمَ إِنْسَانٍ ثُمَّ يَفْرُطُ فِيهِ إِلَّا إِذَا كَانَ مَجْنُونًا ، أَوْ لَا يَسْتَحِقُّ إِكْرَامًا
أَوْ لَا نِعْمَةً ، ثُمَّ أَلْقَاهُ فِي أَرْضٍ لَيْسَ فِيهَا إِلَّا الْجُوعُ وَالْعَطَشُ وَالْهَلَاكُ .

أَمَّا الْوَزِيرُ فَإِنَّهُ التَفَتَ إِلَى الْمَلِكِ لِقَتَّةِ سَطْوَةٍ وَغَضَبٍ وَقَالَ : كَيْفَ
رَأَيْتَ صَدَقَ فِرَاسَتِي ؟ أَمَا كُنْتَ تَكْذِبُنِي وَتَهْدُنِي ، وَتَحْرُسُ لِسَانِي
عَنْ قَوْلِ الْحَقِّ ؟

فَقَالَ الْمَلِكُ : لَقَدْ بَانَ لِيَ الْآنَ أَنْ نَظُرَكَ بَعِيدًا ، وَأَنَّكَ عَاقِلٌ حَذِرٌ ،
لَا يَخَادِعُكَ أَحَدٌ ، أَرْنِي هَذَا الْخَتَمَ حَتَّى أَنْظُرَ فِيهِ ، فَبَصَقَ الْوَزِيرُ فِي وَجْهِهِ
وَقَالَ : يَا ضَعِيفَ الْعَقْلِ ، كَيْفَ أُعْطِيكَ شَيْئًا جَعَلَنِي سَيِّدُكَ ؟ !

ثُمَّ دَعَا الْخَتَمَ ، فَحَضَرَ خَادِمُهُ ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَحْمَلَ الْمَلِكَ ، وَيَرْمِيَهُ فِي
الْأَرْضِ الَّتِي رَمَى فِيهَا نَسِيبَهُ ، فَطَارَ بِهِ سَرِيعًا

وقال الملك وهو طائر به : يا مخلوق ربى ، وما ذا فعلتُ من ذنبٍ حتى
تنفذَ فى أمرَ هذا الوزير الخائن ؟

فقال : بهذا أمرنى سيدى ؛ ولا أستطيعُ أن أعصى له أمراً ، ثم ألقاه
بجوار نسيبه ، فسمعه يبكى ، فبكى معه ، وأخبره بما فعل الوزير به . فقال
معروف : ذلك جناية وزيرك وشرابه ، الذى سقانيه على طعامك ، وقد
كان عليك أن تأخذَ منه جذرك .

فقال الملك : لا ينفعُ الآن ندمى ، فقال معروف ! فلنُسَلِّمَ الأمر إلى الله
الذى لا يعجزه شئ : فى السمواتِ ولا فى الأرضِ وهو اللطيف الخبير .

خرج الوزيرُ من البستان ، وذهبَ إلى بيتِ الملكِ والولاية ، وجمع
رؤساءَ العسكرِ ، والكبراءَ والولاةَ ، وأخبرهم بما فعلهُ بالملكِ ونسيبه ،
وبما كان من أمرِ الخاتمِ الذى فى يده ، وأنذرهم إن لم يرضوا به ملكاً ، أمر
خادم الخاتم أن ينقلهم إلى حيثُ يموتون جوعاً وعطشاً .

فقالوا : لا نُؤذِنَا فى أنفسِنا وأموالنا ، فقد رضينا بك ملكاً ، ولن
نمصى لك أمراً . وكان ذلك الاستسلامُ منهم قهراً ورهباً .

وأرسل الوزير إلى بنتِ الملك أن تهيئَ نفسها لدخوله عليها الليلة ،
فأرسلتُ إليه أن يُهلِها حتى تنقضى عدتها ، لتكون له زوجةً شرعيةً
— وكانت قد عرفتُ أمر الخاتم . وخيانة الوزير . وما فعله بأبيها وزوجها —
فأرسل إليها : إني لا أعرفُ عدةً ، ولا زوجةً شرعيةً ، ولا أهتمُ لحلالٍ
أو حرام ، فهيتى نفسك ، فإني حاضرٌ إليك الليلة لا محالة .

فأجابت : — وأسرتُ في نفسها أن تمكر به — مرحباً بك ،
وأهلاً وسهلاً ، فشرح صدره ، لأنه كان يحبها ، ولم يستطع الزواج منها ،
ثم أمر أن تُمدد الموائد ، ودعا الناس إليها ، وقال لهم : كلوا واشربوا ،
فهذه وليمةُ الفرح والدخول بينت الملك هذه الليلة .

فقال شيخ الإسلام : لا يحلُّ لك ذلك حتى تنقضي عدتها ، وتبرم
عقد الزواج بينك وبينها .

فقال الوزير : اسكت ، فإنني لا أعرفُ عدةً ولا عقداً ، فسكت
الشيخ خوفاً من شره ، وقال لمن بجانبه : ذلك رجلٌ لا دينَ له ، وكفانا
اللهُ شره ، وعجلَ باقضاء أيامه ، وردَّ الأمر إلى أهله .

دخل الوزير على بنت الملك ، فاستقبلته بمبسمة ضاحكة ، في أنخر
حُلِّها ، وأجل زينتها ، وأظهرت له من الحب والرضا ، بما فعله بأبيها
وزوجها ما لم يكن يتوقعه ، حتى إنها قالت : لو قتلت أبي وزوجي ، لكان
ذلك أحسنَ عندي ، حتى أكون خالصةً لك ، مقصورة على محبتك ،
لا يشغلني عنها شاغلٌ من قريبٍ أو بعيد .

فقال لها : اطمئني فإنني قاتلتُها ، وهما الآن في سبيل الفناء ، وكان
ذلك مكرراً منها واحتيالاً ، لتحصل على الخاتم ، ثم تبدلُ بنقمة نعمة ،
وبسطوته وفوزه ذلاً وخيبةً ، ولما رأى حبها ورضاها ، راودها عن
نفسها ، وطلب أن يمسيها ، فتباعدت وبكت وقالت : يا حبيبي وسيدى
كيف ترضى أن تمسني وهذا الرجلُ ينظرُ إلينا ؟ ! فاغتاظ قائلاً : وأين

هذا الرجل ؟ ! فقالت : إنه ينظرُ إلينا ؟ بعينه من فصّ هذا الخاتم ،
فهذا وضحك قائلاً : لا تحزني فهذا خادمُ الخاتم ، وهو تحت طاعتي .

فقالت : ولكنتي أخشى الفاريت ، وأفزعُ منها ، فأنزعهُ وارمِه بعيداً
عني ، فأنزعهُ من يديه ، ووضعه على المخذة ، فأسرعتُ هي إليه وأخذته ،
ثم صغعت الوزير على وجهه ، وضربتُه برجلها ضربة قاسية ، وصرختُ
مناديةً جواريتها وخدمها فحضروا إليها مسرعين ، وأمرتهم أن يمسكوه
ويحيطوا به ، ففعلوا ، ثم دعكت الخاتم ، فحضر أبو السعادات قائلاً : لييك ،
لييك يا سيدتي ، ماذا تطلبين ؟

فقالت : ألق هذا المجرم الأثيم في غيابة السحنِ مُقيداً ، فرماه في
ظلماته مُصقداً ، ورجع إليها سريعاً .

فقالت : هات لي أبي وزوجي هذه الساعة .

فقال : يكونان بين يديك بعد لحظة ، وطار إليهما ، فوجدتهما
غارقين في حسرةٍ وندمٍ وألمٍ ، يشكوان إلى الله تعالى بثُما وحزنهما .

فقال لهما : جاء كما نصرُ الله ورضوانه ، فقال : وكيف ذلك ؟ فقصَّ
عليهما قصة بنتِ الملك ، وما فعلته بوزيره . وبعد ساعة كانا عندها ،
فأطعمتهما وسقتهما ، وقضوا تلك الليلة في فرحةٍ المقهورِ عزَّ وانتصر .

وفي الصباح أشارت البنتُ على أبيها أن يذهب إلى ديوانِ ملكه ،
وأن يجعلَ زوجها كبيرَ وزرائه ، ثم يحضر وزيره الخائن من سجنه ،
ويقتله أشنع قتله ، على ملائ من الخاصة والعامة ، حتى ينكشف عن العساكر



والرعية ، ما حلّ بهم من غمةٍ وبليّةٍ ، بسببِ المجرِمِ وزيرِهِ ، الذى خانَ عهدَهُ ، ونكّلَ به وبزوجِ ابنتِهِ ، وأعلنَ للملأ أنه لا دينَ له ، ولا يعرفُ حلالاً ولا حراماً ولا مِلّةً ، وأصرّ على أن تكونَ صلّتها به ، صلةً أفرادِ الحيوانِ الذى لا دينَ له ولا شريعة .

وطلبَ أبوها الخاتَمَ منها فأبَتْ وقالت : لنْ يكونَ فى يدِكَ ، ولا فى يدِ زوجى ، ولكنْ يكونَ فى يدي . فأنا أحرّصُ عليه منكما ، وأنا تحتُ أمرِكما ، أفعلُ بعمونةِ خادمِهِ كلَّ شئٍ ترغبانِ فيه ، فإذا متُ فالخاتَمُ لكما من بعدى ، وأنما حينئذٍ شأنكما فيه ، فرضيا بذلك واطمأنّا إليه .

وبينما قادةُ العسكرِ وكبراءُ الدولة جالسونَ فى الصباحِ يتعاملونَ مما حلَّ بملكِهِم ، وبنسبيهِ وابنتِهِ ، ويتألمونَ من توليةِ هذا الوزيرِ الفاجرِ عليهم ، ويتوسلونَ إلى الله أنْ ينجيَهُم من شرهِ ، وأنْ يضيّعَ هذا الخاتَمَ من يده ، حتى يُهبّوا فى وجهِهِ ، ويحلَّ به ما يستحقُّه من هوانٍ وذلةٍ — بينما هم كذلك — إذ دخلَ عليهم الملكُ ونسيبُهُ ، فأسرعوا إليهما فرحين ، والتفوا حواهما مغتبطين ، حتى جلسَ الملكُ على كرسيِّهِ فى ديوانِهِ ، وقصَّ عليهم قصّته ، فشاع الخُبرُ فى المدينة ، فهاجتْ فرحةً ، ولبستْ ثيابَ الزينة ، ونشطتِ الحياةُ والحركةُ ، فى رجالِها ونساءِها ، وشبانِها وشيوخِها ، ثم أمرَ بإحضارِ الوزيرِ فقتله أشنعَ قتلة .

مات الوزيرُ ميتةً منكراً ، وشُيعَ باللعناتِ الصارخة ، وأصبحَ معروفُ كَثيرِ الوزراءِ ، واستقرتِ الأحوالُ ، وعمتِ السكينةُ ، مدةَ خمسِ سنواتٍ ، ثم مات الملكُ فى السنة التى تليها ، وخلفَهُ فى الملكِ معروفُ

نسيبه ، وكانت بنتُ الملكِ زوجُهُ ، قد ولدتُ له غلاماً رائعاً في جماله ،
وبلغَ من العمرِ خمساً ، واهتمتُ بتربيته فيها تربيةً صالحةً ، وكانت تمنى
أن تعيشَ طويلاً ، حتى تراه رجلاً كاملاً ، ولكنها مرضت ، وأحسَّتْ
أنه مرضُ الموت ، فوصَّتْ زوجها بولدها خيراً ، وأن يحرسَ على الخاتمِ
ويحفظه من أن يقعَ في يدِ غيره ، ونزعت الخاتمَ من يدها وأعطته إياه ،
ولم يُهلها المرضُ ، فماتتُ ثانيَ يومٍ من وصيتها ، وكانَ حزنُ زوجها
عليها عظيماً .

و ذات ليلةٍ شعرَ الملكُ معروف وهو في سريرِ نومه ، أن شيئاً غريباً
بجانبه ، فانتبه خائفاً مذعوراً وقال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ونظرَ
إليه فوجدَه امرأةً ممسوخة الصورة ، واسعة الفم ، طويلة الأناب ، مُجمَّدة
الشعر ، محروقة الجبين والحدين !

فقال : من أنتِ أيتها المرأة ؟

فقالَت : زوجتُك فاطمةُ العُرة ، فقال : ومتى جئتِ من مصر ؟ فقلت :
جئتُ هذه الساعة ، وكيف عرفتِ أني في هذه المدينة ؟ ومن جاء بكِ
إليها ؟

فقالَت : بعد أن شكوتُك إلى القاضيين ، شكوتُك إلى الوالى ، فأرسلَ
أبا طبقٍ في طلبك فلم يجدك ، وضاع مجهود الباحثين عنك سُدىً ، فعرفتُ
أنك هربتَ من وجهي ، وذهبتِ إلى مكانٍ لا أعرفُه ولا يعرفُه أحدٌ
ينقلُ إلى خبرك ، وقد وقعتُ بعدك في فقرٍ أليم ، وعشتُ على خدمةِ
الناسِ تارةً ، وعلى الشحاذة تارةً أخرى ، وفي كلتا الحالتين لا أجدُ من

الطعام ما يشبعني ، فتذكرتُ نعمتي في جوارك وإساءتي إليك ، وندمتُ على ما فعلت ، وبكيتُ على فراقك بكاءً دونه بكاءُ الخنساء على صخر .
وفي يوم خرجتُ كما دتي أسألُ الناسَ طعاماً ، فلم يُعطني أحدٌ شيئاً ، وكما ذهبتُ إلى إنسانٍ أسترحمُه وأستجديه ، شتمني وزجرني ، وتشاءم من شكلي وهيئتي ، وانتقضى اليومُ ذاهبةً جائيةً ، ولم أحصلُ على شيءٍ آكله وأطعمه ، وبتُّ جائعةً باكيةً ، نادبةً نعمتك ، نادمةً على إساءتي إليك شاكيةً إلى الله عجزى وضعفى ، وجوعى وبؤسى .

وبينما أنا أبكى ، رأيتُ شخصاً أمامي ، يسألني عن بكائي ، فقلت :
كانَ لي زوج كريم الخلق ، واسع الصبر ، يقوم بشأني ، فيطعمني ويكسوني ، وقد فقدته ، ولا أعرفُ مكاناً له ، وذقتُ الهوانَ وذلَّ السؤال من بعده ، فقال : وما اسمه ؟

فقلت : معروف الإسكافي ، الرجل التقي الصابر الكافي .
فقال إنه الآن ملكُ مدينةِ خيتانِ الختن ، وإن شئتِ حملتكِ إليه في أقرب زمن ، فتوسلتُ إليه أن يتقانى إليك ، فطارَ بي في الجو حتى نزل في هذا القصر بي . وقال :

إذا دخلتِ هذه الحجرة ، وجدتِ زوجك نائماً على سريرهِ ، ولما دخلتِ رأيته نائماً على سريرك ، غارقاً في نومك وسُرورك وسَمْعِكَ ، وما كنتِ أنتظري منك أن تفارقني وأنا زوجك ، ولكن أحمد الله الذي جمعنا وأنت في أسعد أيامك .

فقال لها : لم يكن في بالي أن فارقتُ أبدأً ، ولكنكِ أسأتِ وشكوتِ ،

فهربت كرها ، وحكى قصته لها ، إلى أن أصبح ملكا ، وله غلامٌ من بنتِ الملكِ التي ماتت .

فقالت : لم يكن ما جرى إلّا قدراً مقدوراً ، وأسألك بالله ألا تفرق بيني وبينك ، واجعلني خادمة في بيتك لأعيش في نعمتك ، ولو على سبيل الإحسان والصدقة .

وما زالت ترجو في انكسار وذلة حتى رق لها قلبه .

فقال : إن تبتِ إلى ربك ، وأحسنيت معاملتك ، عشت في نعمة واسعة ، وإن أنت رجعت إلى طبعك ، وجاءني شرٌّ من ناحيتك قتلتك ، ولا أخاف من قاضٍ ولا سلطان ، فقد أصبحتُ لا أخشى إلا الله تعالى . وجميعُ الملوكِ يخشونَ أبى وسطوتى ، وإن معى حائماً إن دعتُهُ حضرَ خادمه ، وقضى لى جميعَ ما أطلبه ، وسأسكنك قصرًا يخدمك فيه عَشْرُونَ جارية ، وإن أردتِ أن ترجعى إلى مصر أمرتُ خادمَ الخاتم أن يحملَني إليها ، ويحملَ معك ما يكفيك من الزاد مدة حياتك ، فإذا تَخَيَّرَين ؟

فقالت : أختارُ المعيشة في كنفيك وجوارك ، وقد تبتُ إلى الله تعالى ، ثم قبلتُ يده .

أمرَ معروفٌ أن تسكن في قصرٍ وحدها ، وأن يكونَ لها من الخدم من يكفيها ، وجعل ابنه وقد بلغ سبعَ سنين يتردد عليها ، ولما شعرَ الولدُ أنها تكرهه ، ولا تحبُّ رؤيته ، كرهها ، وانقطع عن الذهاب إليها إلا قليلا .

وكان معروف قد زهد زوجته فاطمة العرة ، لأنها أصبحت عجوزاً

شمطاء ، ليس فيها مسحةٌ من محاسن النساء ، ولأن قلبه كان قد أبغضها ،
ومن العسير أن يتحول إلى محبتها ، فالقلوب إذا تنافر ودُّها ، كانت
كالزجاجة لا يجبرُ كسرُها .

كان معروف يُطعمُ زوجته فاطمة العرة ، ابتغاء وجهه ربه ، معرضاً
عنها ، هاجراً فراثها ، محبباً للجوارى الحسان ، مشغولاً بهن ، فغضبت
فاطمة ، وتحركت الغيرة في صدرها ، ووسوسَ إليها الشيطان أن تأخذَ
منه الخاتم ثم تقتله ، وتنصبَ نفسها ملكة ، نخرجت من قصرها ذات
ليلة ، ودخلت قصر زوجها في حذر وخفية .

وكان معروف في تلك الليلة راقداً مع جارية من جواريه ، وكان من
عادته أن ينزع الخاتم من إصبعه ، ويضعه على مخدته ، فإذا دخل الحمام أغلق
أبواب القصر حتى لا يدخله أحد ، فإذا خرج من الحمام لبس الخاتم وفتح
الأبواب ، ولا خرج بعد ذلك على من يدخله ، وكانت فاطمة العرة تعرف
هذا كله ، وذلك ما أطمعها في الخاتم وسرقته ، وكان ابن زوجها وقت
دخولها في المرحاض يقضى حاجته ، فرآها تسرع إلى حجرة أبيه .

فقال في نفسه : لأمر ما خرجت هذه المرأة في ذلك الليل ذاهبة
إلى حجرة أبي ، إني لأخشى أن تكون قد دبرت له مكيدةً تضره ،
وجرى وراءها في خفية ، ومعه سيفه ، الذي كان لا ينفك ينقلده ، فيقول
له والله ما شاء الله ! ! سيفك عظيم ، ولكنك لا تموضُ به غمرات
القتال ، فيقول هو لأبيه : هذا سيف سأقتلُ به من يستحق القتل .

وقف ابن معروف في مكان من قصر أبيه ، لا تراه فاطمة العرة



فِيهِ، يَرْقُبُ حَرَكَتَهَا، وَجَعَلَتْ هِيَ تَبْحَثُ عَنْ اخْتَامِ قَائِلَةٍ:

أَيْنَ الْخَاتَمِ؟ ! أَيْنَ الْخَاتَمِ؟ !

فَلَمَّا سَمِعَ قَوْلَهَا عَرَفَ رَادَّهَا ، فَتَرَصَّدَهَا حَتَّى عَثَرَ بِأَخْلَاقِهَا ، ثُمَّ هَمَّتْ أَنْ تَدْعَكَ ، فَأَسْرَعَ إِلَيْهَا بِسَيْفِهِ ، وَضَرَبَهَا فِي عُنُقِهَا ضَرْبَةً فَفَصَلَتْ رَأْسَهَا عَنْ جَسَمِهَا ، وَكَانَتْ قَدْ صَرَخَتْ صَرْخَةً عَالِيَةً ، انْتَبَهَ عَلَى أَثَرِهَا وَالِدُهُ ، فَوَجَدَ امْرَأَتَهُ فَاطِمَةَ ، مُلْقَاةً عَلَى الْأَرْضِ مَقْتُولَةً ، وَابْنُهُ أَمَامَهَا شَاهِرُ سَيْفِهِ ، فَسَأَلَهُ : مَا هَذَا يَا وَلَدِي ؟

فقال: ألا تذكرُ أني كلما سألتني عن سيفي هذا قلتُ لك: إني سأقتلُ به من يستحقُّ القتلَ؟! وهأنذا قد قطعتُ به عُنقَ امرأةٍ خائنةٍ تستحقُّ الموتَ العاجِلَ، وقصّ على أبيه قصّتها، فجعلوا يفتشانِ عن الخاتمِ حتى وجداه في قبضةِ يدها، فأخذوه معروف وقال: أراحك الله يا ولدي في الدنيا والآخرة، فقد أرحمتني من هذه المرأة الخبيثة الخائنة، ثم أمرَ الملكُ ندمه أن ينقلوها إلى مكانٍ آخر، وأن يقوموا بغسلها وتكفينها، ولما أشرق الصباحُ دُفنت في هذه المدينة، وكأنها نقلتُ إليها لِموت وتدفن فيها، وتلقى جزاءها على يد مَنْ أحسنَ إليها وأساءت إليه.

وأصدر معروف أمره ، أن يحضر والده الرجل الفلاح الذي أكرمه
في حقله فلما حضر جعله وزيره ، وأمين مشورته ، وتزوج ابنته ، ثم زوج
ابنه ، ولبثوا في أرغد عيش وأهنأ مسرة ، حتى انتقلوا إلى الدار الآخرة ،
وسبحان الحي القيوم الذي يحيي ويميت ، بيده الملك وهو على كل
شيء قدير .

الف ليلة وليلة

هذه طبعة جديدة من هذه المجموعة التي تنتمي إلى التراث الشعبي.. والتي نالت إهتماماً عالمياً في الشرق والغرب.. وترجمت إلى كل لغات العالم..

وتتماز هذه الطبعة بحسن الصياغة التي تناسب عقول الشباب والناشئة.. وتخلو من الشوائب التي توجد في طبعات كثيرة..

إنها واحدة من عيون التراث الذي تحرص دار المعارف على تقديمه إلى القارئ العزيز..

صدر منها:

- | | |
|----------------------|-----------------------------------|
| ١ - شهرزاد ودنيا زاد | ٧ - عبدالله البري وعبدالله البحري |
| ٢ - السندباد البحري | ٨ - أبو الحسن وجاريته تودد |
| ٣ - قمر الزمان | ٩ - الحصان المسحور |
| ٤ - الصياد والعفريت | ١٠ - علي بن بكار وشمس النهار |
| ٥ - معروف الإسكافي | ١١ - علي الزئبق ودليلة المحتالة |
| ٦ - الأحذب والخياط | ١٢ - علاء الدين والمصباح العجيب |
| | ١٣ - علي بابا |



دار المعارف